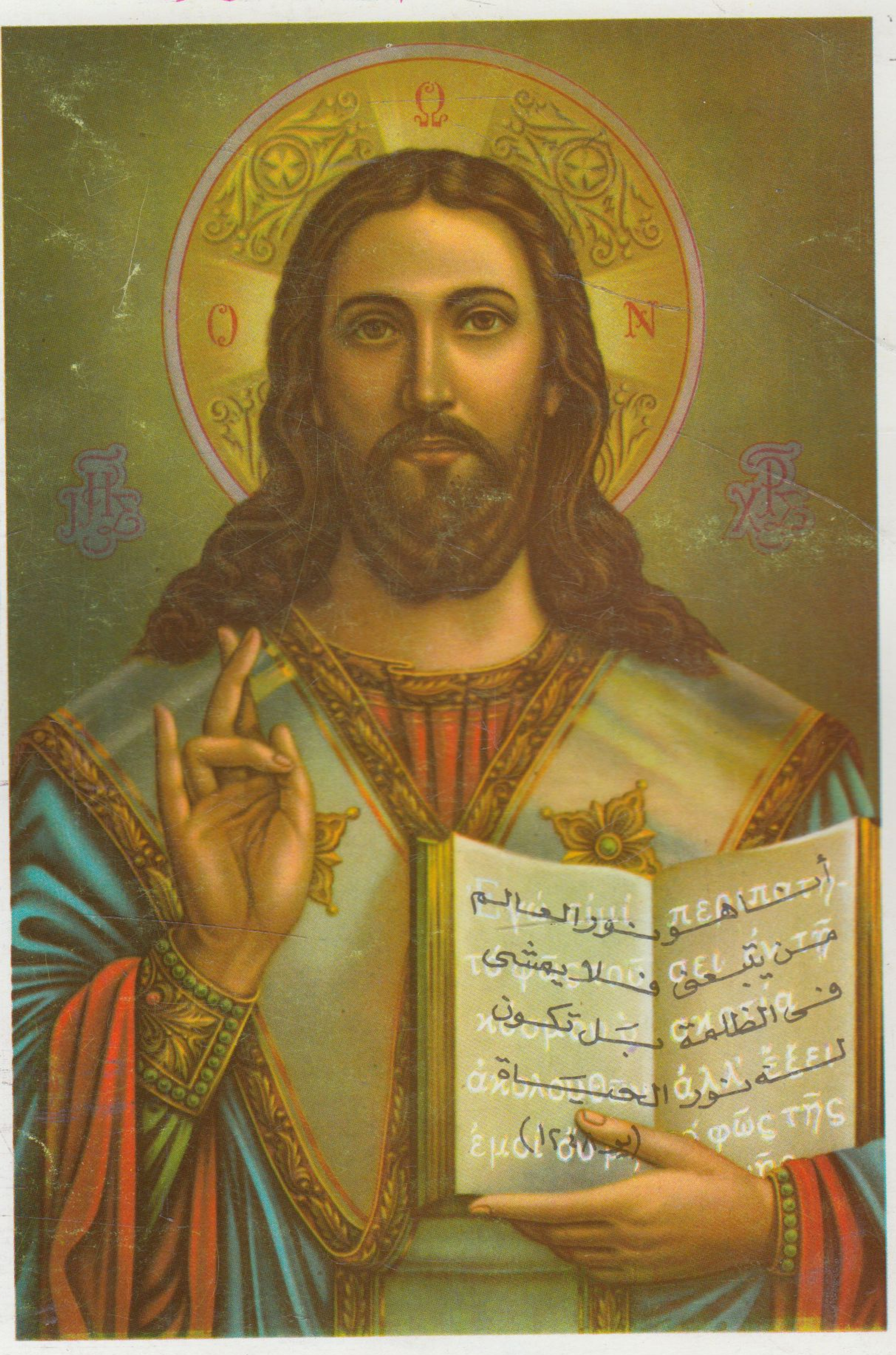
الكنيسة الأرثوذكسية
« كنيسة الاسكندرية »

الكنيسة القبطية الأرثوذكسية
كنيسة علم ولاهوت



القمص تادرس يعقوب ملطي

الكنيسة الأرثوذكسية
كنيسة الاسكندرية

الكنيسة القبطية الأرثوذكسية
كنيسة علم ولاهوت

للقمص تادرس يعقوب ملطى

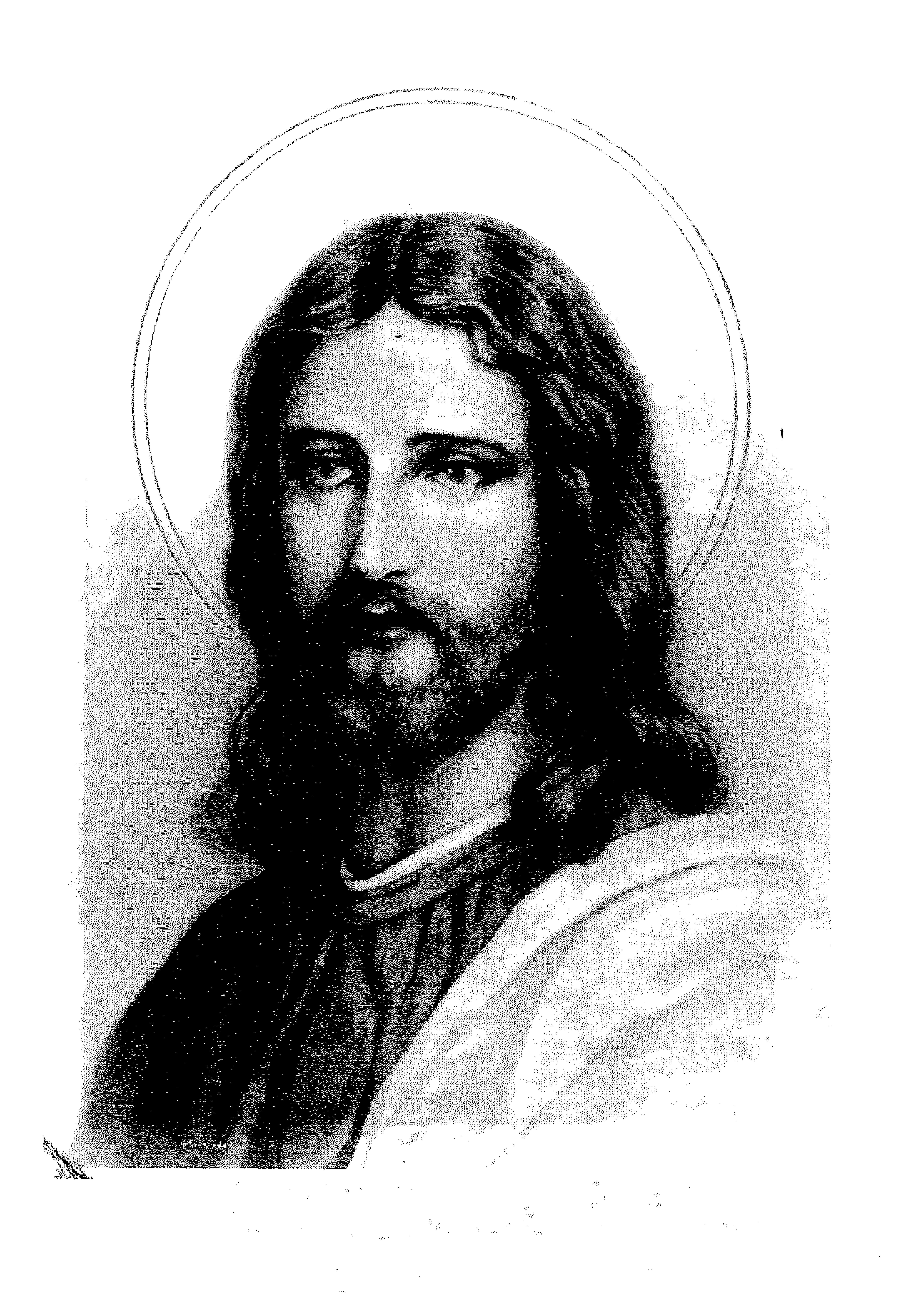
ملاحظة

سبق لنا نشر كتاب عن مدرسة الإسكندرية عام ١٩٨٠ ، تحت عنوان :
« **آباء مدرسة الاسكندرية الأولون** »
هو فى حقيقته مجموعة محاضرات ألقيت على طلبة الكلية اللاهوتية بالإسكندرية ، أرجو أن يسمح لى الرب بتقديمه فى صورة أكثر توسعاً فيما بعد .

المحتويات

+ + +

اسم الكتاب : الكنيسة القبطية الأرثوذكسية ، كنيسة علم ولاهوت .
المؤلف : القمص تادرس يعقوب ملطى .
التجميع : - مركز الدلتا للجمع التصويرى .
المطبعة: الأنبا رويس (أوفست) .
رقم الإيداع بدار الكتب : ٤٢٩٥ / ١٩٨٦ م .





قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية (١١٧)

مدرسة الإسكندرية

قبل ظهور المسيحية فى الإسكندرية بزمن طويل ، اشتهرت هذه المدينة بمدارسها المتنوعة ، ولعل أعظم هذه المدارس هى « المتحف » أو « الموزيم » ، التى أسسها بطليموس ، وصارت أشهر مدرسة فى الشرق . ضمت مكتبتها الضخمة ما بين مائتى ألف ونصف مليون مخطوط وكتاب فى أيام بطليموس الأول . بجانب هذه المدرسة وجدت مدرسة السيرابيوم وعدة مدارس يهودية منتشرة فى بقاع البلاد .

بمعنَى آخر ، فإن الإسكندرية ــ كمدينة عالمية قد أختيرت بيتاً للعلم(١) ــ كانت مركزاً فريداً للحياة الفكرية المتألقة ، ازدهرت فيها ثقافات مصرية ويونانية ويهودية هيأت لقيام ثقافة جديدة .

على أى الأحوال ، لم يكن أمام الكنيسة فى جو كهذا إلا إنشاء مركز للتعليم المسيحى(٣) ، يسندها فى مواجهة المعركة التى شنتها عليها هذه المدارس القوية .

المدرسة المسيحية

شهد القديس جيروم أن القديس مرقس نفسه هو الذى قام بتأسيس مدرسة الإسكندرية المسيحية(٤) ، فقد أوحى له بالروح القدس أن يقيمها للتعليم بالمسيحية كطريق لتثبيت الدين الجديد فى هذه المدينة(٥) .

صارت هذه المدرسة أقدم مركز للعلوم القدسية فى تاريخ المسيحية(٦) ، فيها تشكل أول نظام للاهوت المسيحى وقام منهج تفسير الكتاب المقدس الرمزى . فى هذا يقول Dom. D. Rees : [كانت مدرسة الإسكندرية التعليمية (ديد سقاليون) بلا شك أشهر معهد عقلى فى العالم المسيحى الأول ، وكان اهتمامها الأول منصباً على دراسة الكتاب المقدس ، وقد ارتبط اسمها بالتفسير الكتابى . كان شغل هذه المدرسة التفسيرية الأول هو اكتشاف المعنى الروحى فى كل موضع وراء السطور فى الكتاب(٧)].

تطورها

بدأت مدرسة الإسكندرية كمدرسة للموعوظين ، تضم طالبى العماد لتعليم الإيمان المسيحى ، تقدم لهم دراسات تؤهلهم لنوال سرّ المعمودية . فتحت المدرسة أبوابها أمام الجميع ، دون النظر إلى دياناتهم أو ثقافتهم أو أعمارهم أو خلفيتهم .

فى القرن الثانى صار للمدرسة دورها الفعّال فى حياة الكنيسة ، كما يظهر من الآتى :

١ ـــ استطاعت أن تروى ظمأ المسيحيين بالاسكندرية نحو المعرفة الدينية ، تحثهم على الدراسات العليا ، وتخلق فيهم رغبة البحث فى مجالات متنوعة .

٢ ـــ خلقت قادة كنسيين روحيين مشهورين عبر السنوات ؛ كثير منهم اعتلوا كرسى القديس مارمرقس .

٣ ـــ خلال غيرتها الكرازية ، استطاعت أن تربح نفوساً كثيرة من مصر والخارج للمسيحية .

٤ ـــ بروح مسكونى حق جذبت تلاميذ من أمم أخرى ، كثير منهم صاروا قادة وأساقفة فى كنائسهم .

٥ ـــ أبرزت وعياً عاماً عن أهمية التعليم كعنصر أساسى فى البنيان الدينى . لهذا انتفعت منها كل كنيسة فى مصر بطريق أو آخر .

٦ ـــ ساهمت فى تقديم أول نظام للدراسات اللاهوتية فى العالم .

٧ ـــ استخدمت الفلسفة كسلاح فى مناورة الفلاسفة الوثنيين ، لتضربهم فى عقر دارهم[٨] .

برنامجها

١ ـــ إنه لخطأ جسيم أن نحصر نشاط المدرسة فى اللاهوت[٩] ؛ فقد كان منهجها التعليمى يقوم على أساس موسوعى شامل encyclopedic ؛ تقدم فى

البداية سلسلة كاملة من العلوم الدنيوية ، ثم ترتفع نحو الفلسفة السلوكية والدينية ، وأخيراً إلى اللاهوت المسيحى خلال تفسير الكتب المقدسة . هذا المنهج الموسوعى هو تقليد إسكندرى ، وجد أيضاً فى المدارس الوثنية واليهودية .

٢ — يمكننا من كتب القديس اكليمندس الثلاثة التى تقدم بتوسع خطوط برامج المدرسة أن نخلص بأن ثمة ثلاثة مناهج تُقَدَّم :

ا — منهج خاص لغير المسيحيين يقدم للطلبة أساسيات المسيحية .
ب — منهج خاص بالأخلاقيات المسيحية .
جـ — منهج متقدم عن الحكمة الإلهية والمعرفة الكافية للإنسان المسيحى الروحانى .

٣ — فى هذه المدرسة تمارس العبادة جنباً إلى جنب مع الدراسة[١٠] ؛ فيمارس الأساتذة مع تلاميذهم الصلاة والصوم وأنواعاً من النسك . كانت حياتهم نموذجاً فى النقاوة والكمال . كانت البتولية مستحبة ، التزم بها كثيرون ... ومع زهدهم فى الطعام والشراب زهدوا أيضا قنية الزمنيات .

عمداؤها

إن مجرد نظرة سريعة نحو أسماء من تولى قيادة مدرسة إسكندرية المسيحية تكشف عن شهادة داخلية عن تاريخ المدرسة وسُمُوِّها بين المعاهد الشبيهة بها ؛ بينهم أثيناغوراس وبنتينوس واكليمندس وأوريجانوس وهيراكلاس وألكسندر وديونسيوس وبيريوس وثيؤغنسطس وبطرس ومقاريوس وديديموس الضرير الخ ...

+ + +

عمداء المدرسة

١ ـــ أثيناغوراس المدافع

كان أثيناغوراس الذى رأس إحدى كراسى الأكاديمية « الموزيم » ، مولعاً بالكتابة ضد المسيحية ، عكف على دراسة الكتاب المقدس ليضرب بسهام نقده بكل دقة ، لكن الروح القدس أمسك به بقوة فصار مدافعاً عن الإيمان الذى كان يقاومه . لم يقبل المسيحية (حوالى سنة ١٧٦ م) فحسب وإنما صار أحد عمداء مدرسة اسكندرية اللاهوتية المشهورين[1] ، دون أن يخلع عنه زى الفلاسفة .

دفاعه

عوض أن يكتب ليفند المسيحية كتب دفاعه أو التماسه (٣٧ فصلًا) عن المسيحية حوالى سنة ١٧٧ م. يفهم من عنوانه « برسڤيا » (سفارة أو شفاعة) أنه قام برحلة لتقديم هذا الالتماس للإمبراطور الفيلسوف مرقس اوريليوس أنطونيوس (١٦١ ـــ ١٨٠ م) وابنه شريكه فى الحكم كومودوس .

فى هذا الاحتجاج فند أثيناغوراس الاتهامات الثلاثة التى وجهت ضد المسيحيين : الإلحاد ، أكل لحوم البشر ، ممارسة المعاشرات الأودبية . أما علة اتهاماتهم الباطلة فغالباً ما ترجع إلى الأسباب التالية :

١ ـــ رفض المسيحيين التعرف على آلهة المدن والاشتراك فى الطقوس الشعبية التقليدية الخاصة بالآلهة . لهذا اتهموا بعدم ولائهم للأباطرة وكراهيتهم للآلهة وللبشرية .

٢ ـــ أساء الوثنيون فهم « سرّ الافخارستيا » ، فظنوا فى المسيحيين آكلى لحوم البشر .

٣ ـــ الاجتماعات المغلقة الخاصة بممارسة الليتورجيات السرائرية مع وجود علاقات وطيدة بين المسيحيين وبعضهم البعض أدى إلى تشكك الوثنيين فى أمرهم .

على أى الأحوال ، يعلن أثيناغوراس أن المسيحيين لا يعترضون على الخضوع للعقوبة إن وجدوا مخطئين ، إنما يطلبون محاكمة عادلة ، ومساواة فى الحقوق مع المواطنين الآخرين .

لقد جذب نظر الإمبراطور وابنه إلى الإيمان بالله وتحدث عن حياة المسيحيين المملوءة سلاماً بلا عيب : [إننا أبعد ما يكون من ارتكاب هذه الأمور البشعة التى تُتهم بها، فإنه لا يسمح لنا بمجرد التفكير بشهوة فى امرأة. وفى هذه النقطة بالذات فإننا إما لا نتزوج مطلقاً أو نتزوج لإنجاب الأطفال فقط ، ونتزوج مرة واحدة فى حياتنا].

هنا أثيناغوراس الذى هاجم المونتانست يتفق معهم فى موضوع الزواج الثانى ، حاسباً إياه نوعاً من الزنا ، أو زنا هيّناً[٢] .

أخيراً ، يمتاز هذا الاحتجاج عن احتجاج يوستين (من مدافعى القرن الثانى) من جهة اعتداله ولغته وتعقله ، فلم يكتب بطريقة خطابية ، بل كان يهدف إلى كشف القضية المسيحية بطريقة هادئة بغير انفعال[٣] .

عن قيامة الموتى

يعتبر هذا المقال (٢٥ فصلًا) أول محاولة يقوم بها كاتب مسيحى ليؤكد عقيدة القيامة ببراهين فلسفية وليس بدلائل من الوحى وحده[٤] . ويعتبر من أفضل ما كتب فى هذا الشأن فى الكتابات المسيحية[٥] .

فى هذا العمل يفند كل الاعتراضات الفلسفية التى قدمها الدارسون فى أيامه ضد هذه العقيدة . لقد قرر أن إمكانية القيامة تبرهنها قدرة الله (فصل ١ـــ١٠) ، وهى ضرورية للأسباب التالية :

١ ـــ لأن الإنسان كائن عاقل خُلق ليعيش إلى الأبد (١١ـــ١٣) .

٢ ـــ ينبغى أن يشترك الجسد أيضاً مع النفس فى المكافأة فى العالم الآتى (١٨ـــ٢٣).

٣ ـــ خلق الإنسان من أجل السعادة الأبدية التى لا تتحقق بوجوده على الأرض (٢٤ ، ٢٥).

٢ ـ بنتينوس الفيلسوف

يعتبر بنتينوس من أعظم عمداء مدرسة إسكندرية التعليمية ، نال شهرة فائقة حتى اعتبره يوسابيوس أول رئيس للمدرسة .

تحدث عنه القديس اكليمندس الإسكندرى كأعظم وأكمل معلم ، فقد تعرف على معلمين كثيرين غير أنه وجد تعزيته فيه وحده . وصف لقاءه معه هكذا : [كان (هذا اللقاء) هو الأخير بالنسبة للفلاسفة ، لكنه كان الأول من جهة التأثير ... إنه بالحق كالنحلة الصقلية ، يقتطف من كل الزهور من مروج الأنبياء والرسل ، ويودع فى نفوس سامعيه ذخيرة معرفة غير فاسدة[١]].

بنتينوس والفلسفة

كان بنتينوس رواقياً مشهوراً ، اعتنق المسيحية على يدى أثيناغوراس . وفى عام ١٨١ خلفه كرئيس للمدرسة اللاهوتية التعليمية ، وإليه ينسب إدخال الفلسفة والعلوم إلى المدرسة لكسب الهراطقة والوثنيين المثقفين . شهد له أوريجانوس قائلا : إنه فى دراسته للفلسفة إنما يتمثل ببنتينوس الذى ربح الكثيرين من المثقفين خلال معرفته للفلسفة . هذا الاتجاه أدخله بنتينوس ، وتطوّر على يدى تلميذه القديس اكليمندس الإسكندرى ، وأخيراً أعيد تنظيمه بواسطة أوريجانوس .

بنتينوس والأبجدية القبطية

بجانب كونه معلماً عظيماً ، كان له الفضل فى إدخال الأبجدية القبطية ، مستخدماً الحروف اليونانية ، مضيفاً إليها سبعة حروف من اللهجة الديموطيقية القديمة . وبهذا أمكن ترجمة الكتاب المقدس إلى القبطية تحت إشرافه . ويعطى الباحثون اهتماماً عظيماً لهذه الترجمة على قدم المساواة مع الأصل اليونانى نفسه[٢] . كما تُرجم كل أدبنا الدينى إلى هذه اللغة بكونها آخر شكل من تطور اللغة المصرية القديمة ، وبدأ الكتاب الأقباط يستخدمونها عوض اليونانية .

بنتينوس كمبشر

لم تكن مدرسة الإسكندرية مجرد معهد علمى دينى ، لكنها كانت جزءاً لا ينفصل عن الكنيسة . كان رجالها كنسيين روحيين ، كرسوا حياتهم للدراسة ونشر الفكر الإنجيلى الكنسى ، مقدمين حياتهم أمام تلاميذهم مثلًا حياً فى النسك كما فى الشهادة خلال الكرازة بالإنجيل وطلب خلاص العالم .

كان بنتينوس ليس معلماً فحسب ، بل و « المعين لكثيرين »، ملتصقاً بشعب يدعوه « بنتينوسنا » .

فى عام ١٩٠ م اختاره البابا ديمتريوس لإرسالية مسيحية تكرز فى الهند ، فترك المدرسة تحت قيادة تلميذه وخلفه اكليمندس الإسكندرى . كما كرز أيضاً فى إثيوبيا والعربية واليمن[٣] .

فى رحلته أحضر معه نسخة من إنجيل متى بخط يد الإنجيلى بالعبرية ، كان قد أحضرها القديس برثلماوس معه الى الهند[٤] .

كتاباته

شرح بنتينوس كل أسفار الكتاب المقدس من التكوين حتى الرؤيا ، حتى دعاه معاصروه « مفسر كلمة الله » ، وللأسف لم يصلنا من كتاباته إلا بعض فقرات وردت خلال كتابات تلميذه القديس اكليمنضس .

مكان مولده

أخيراً يليق بنا أن نشير إلى أن بنتينوس اسكندرى الموطن[٥] . يرى المؤرخ فيلبس الصيدوى ، من رجال القرن الخامس ، أنه كان أثينياً ، ولكن هذا مجرد حدس ، بسبب اهتمام القديس بالفلسفة اليونانية . ويرى بعض الدارسين أنه من صقلية لأن تلميذه القديس اكليمنضس لقبه : « بالنحلة الصقلية » ، لكن هذا الأمر لا يمكن الأخذ به لأن النحل الصقلى كانت له شهرته العالمية فى ذلك الوقت ، فكانت هذه التسمية مجرد إشارة إلى عذوبة تعليمه وما يحمله من قوة [٦] .

٣ ــ القديس اكليمنضس والغنوسية (المعرفة)

وُلد تيطس فلافيوس اكليمنضس حوالى عام ١٥٠ م من أبوين وثنيين . أما عن مولده ، فوجد تقليدان فى أيام القديس ابيفانيوس[١] فى القرن الرابع ، أحدهما ينسب مولده لأثينا والآخر للإسكندرية . اعتمد التقليد الثانى (الاسكندرية) على طول بقائه فى هذه المدينة ، أما الأول فيتفق بالأكثر مع ما ورد فى كتابه « المتفرقات » ١:١١ .

لا نعرف شيئاً عن تاريخ تحوله إلى المسيحية ولا الظروف المحيطة أو الدوافع التى أدت إلى ذلك ، إنما المعروف عنه أنه قام برحلات مكثفة نحو جنوب إيطاليا وسوريا وفلسطين يبحث عن تعاليم مشاهير المعلمين المسيحيين . أخيراً بلغ إلى الإسكندرية حيث جذبته محاضرات القديس بنتينوس ، فاستقر هناك وصارت وطنه[٢] . تتلمذ على يدى القديس بنتينوس وصار مساعداً له . سيم كاهناً فى الإسكندرية ، وقام بعمله الوعظى بامتياز عظيم ، كما خلف بنتينوس فى رئاسة المدرسة قبل عام ١٩٠ م . كان من بين تلاميذه أوريجانوس وألكسندروس أسقف أورشليم .

فى أيام الاضطهاد القاسى الذى أثاره سبتيموس سويرس حوالى عام ٢١٢ م ، اضطر إلى مغادرة الإسكندرية والالتجاء ربما إلى فلسطين وسوريا . وفى عام ٢١٥ م تنيح دون أن يرجع إلى مصر .

وصفه يوسابيوس بأنه « كان متمرناً فى الكتب المقدسة[٣] »، كما وصفه القديس كيرلس الكبير بأنه « كان شغوفاً فى التعلّم » و « خبيراً على وجه الخصوص فى التاريخ اليونانى[٤] » ؛ قال عنه القديس جيروم : « مجلداته المعروفة مملوءة علماً وفصاحة ، يستخدم الكتب المقدسة والأدب الدنيوى[٥] » ، كما وصفه سقراط بأنه « كان مملوءاً من كل حكمة[٦] » .

يقرر فيرجسون : [كان اكليمنضس متدين الفكر ، يبحث عن الله . وقد وجد فى إله الإنسان المسيحى أنه قادر على إشباعه دينياً وعقلانياً وسلوكياً[٧]]

نظرة اكليمنضس للفلسفة

القديس اكليمنضس هو أول كاتب مسيحى قدم التعليم المسيحى فى مواجهة لأفكار زمانه ، فقد حسب أن دستور الكنيسة والكتب المقدسة لا يتعارض مع الفلسفة ، وأنه لا عداوة بين المسيحية والفلسفة . ففى نظره أن الفلسفة ليست عملًا من أعمال الظلمة ، بل فى كل مذهب من مذاهبها يشرق عليها شعاع نور من اللوغوس . غاية الفلاسفة فى كل المدارس الفلسفية هى ذات غاية المسيحية ، ألا وهى الحياة السامية ؛ ولكن الفارق هو أن الفلاسفة القدامى لم يتمتعوا إلا بقبسات من الحق ، أما المسيحية فأعلنت الحق كاملًا فى المسيح[٨] . فى هذا كتب : [كان الفلاسفة أطفالًا حتى أقامهم السيد المسيح رجالًا[٩]].

الفلسفة ــ فى ذهنه ــ تحمل جانبين : أحدهما هو عطية الله ، يهبه للفلاسفة ليهيىء اليونانيين (الوثنيين) لقبول الحق المسيحى ، والجانب الآخر بشرى ، حيث أفسد البشر الفلسفة بشرورهم . لهذا نجده تارة يقول بأن افلاطون استخدم آراء موسى والأنبياء ، ولو أنه لم يقدمها بطريقة صادقة ، كما شبه الفلسفة اليونانية بالشريعة الموسوية ــ مثل القديس بولس ــ أعطيت كمعلم تقود اليونانيين إلى المسيح وتصدهم عن الخطية[١٠] .

عرف القديس اكليمندس العالم بجانبيه الوثنى والمسيحى ، عرف الكتابات اليونانية الكلاسيكية كما عرف الكتاب المقدس ، فكان كمن فى داره سواء بالنسبة للفلسفة أو اللاهوت البولسى . لهذا اعتَقَدَ أنه ليس من واجب الكنيسة أن تثبط همة الموعوظين عن متابعة دراستهم الفلسفية ، إنما تستطيع الكنيسة أن تعطى مسحة مسيحية للعالم الوثنى بثقافتها وتعليمها !

فى هذه النقطة يعتبر القديس اكليمندس هو الذى هيأ لوجود أوريجانوس ويُحسب أيضا الرجل السابق له ، وبدونه ما كان يمكننا أن نجد أوريجانوس الذى نعرفه[١١] .

نظرة القديس اكليمندس للغنوسية

كلمة « غنوسس » باليونانية تعنى « معرفة » .

قبل القديس اكليمندس كانت كلمة « غنوسى » يُقصد بها « هرطوقيا » ، لأن الهرطقات فى القرنين الأول والثانى ظهرت تحت عنوان « غنوسية » فى أشكال متنوعة . بعض الغنوسيين لهم اتجاهات وثنية ، وآخرون لهم اتجاهات يهودية ، وآخرون فى اتجاهات مسيحية . أحد أساسيات الغنوسية هو أن النفس يمكنها أن تبلغ الى الله الأسمى خلال الغنوسية (المعرفة) وليس خلال الإيمان . لم يهاجم القديس اكليمندس « الغنوسية » ، إنما كشف عن الغنوسية المسيحية . فى نظرته أن كلمة « غنوسى » تشير لا إلى الهرطوقى بل إلى المؤمن الروحى الذى يتقبل الغنوسية كعطية الهية . إنه يقول : [هذه هى العلامات التى تميز غنوسيتنا : أولًا التأمل ، ثم تنفيذ الوصايا ، وأخيراً تعليم الصالحين . متى وجدت هذه السمات فى إنسان ما يُحسب غنوسياً كاملًا . إذا فقد الإنسان إحدى هذه السمات تعطلت غنوسيته .

لقد أوضح والتر ڤولكر حسناً أن غنوسية القديس اكليمندس إن كانت تنتعش بضبط الإنسان نفسه لكنها فوق كل شيء هى معرفة الكتب المقدسة خلال الاستنارة بعمل المسيح (اللوغوس) ، على ضوء تقليد الكنيسة[١٣] .

فيما يلى بعض نصوصه الأساسية بخصوص الغنوسية :

+ الغنوسية هى أساس ومصدر كل عمل به نتشبه باللوغوس[١٤] .
+ نعمة الغنوسية هى من عند الآب بالابن[١٥] .
+ المعمودية تجعلها ممكنة بالنسبة لنا ، إذ يصير الله معروفاً لدينا وذلك بتطهير أعين نفوسنا[١٦] .
+ يهبنا المسيح الغنوسية خلال قراءة الكتب المقدسة بالتقليد[١٧] .
+ الغنوسى مدعو للتعرف على الله[١٨] ، وأن يراه[١٩] ، وأن يقتنيه[٢٠] .
+ هكذا ينعم الغنوسى بالوصول إلى مساواة الملائكة[٢١] .
+ يصير الغنوسى مؤسسا بثبات على المحبة[٢٢] ، والمحبة تكمل بالغنوسية[٢٣] .

+ الله حب ، يمكن أن يعرفه الذين يحبونه ... يلزمنا أن ندخل إلى القرب منه خلال الحب الإلهى ، فنتأمل فيه بالتشبه به[٢٤] .

+ الذين يعرفون (الإبن) يدعوهم الله أبناء وآلهة[٢٥] . كلمة الله صار إنساناً لكى تتعلم كيف يصير الإنسان إلها[٢٦] .

كتاباته

أهم أعماله هو ثالوثه الذى يتكون من :

١ ـــ حث أو نصح لليونانيين Protrepticus

٢ ـــ المعلم أو المربى Paedagogus .

٣ ـــ المتفرقات أو السجاد Stromata .

يكشف هذا الثالوث عن منهج القديس اللاهوتى ، فهو يعتقد أن خطة الله لخلاصنا تمر بثلاث مراحل : الأولى ، فيها يدعو كلمة الله أو اللوغوس البشرية لترك الوثنية خلال الإيمان ؛ بعد ذلك يصلح حياتهم بوصايا سلوكية ، وأخيراً يسمو بالذين خضعوا لهذا التطهير السلوكى إلى كمال معرفة الإلهيات ، التى يدعوها « غنوسية » . بمعنى آخر ، عمل المسيح هو : دعوة لهجر الوثنية ، خلاص من الخطية ، وأخيراً خلاص من الخطأ الذى أعمى البشرية وجعلها عاجزة .

للبرنامج الإلهى لخلاصنا أثره على مدرسة اسكندرية فى عهد القديس اكليمندس . إذ كانت المدرسة تركز برنامجها على ثلاث خطوات : التحول من الوثنية إلى المسيحية ، ممارسة الوصايا السلوكية ، تعليم المسيحيين لبلوغهم كمال معرفة التعاليم .

١ ـــ نصح لليونانيين

يعتبر هذا العمل تقليدياً من الأعمال الجدلية ، حيث ينتقد بعنف العبادة الوثنية وأساطيرها من جهة ما تحويه من خرافات وسذاجة مع شهوات جسدية ، موضحاً أن عظماء الفلاسفة قد فشلوا فى التصدى للوثنية بالرغم من تحققهم من فسادها[٢٧] .

ربما كتب هذا العمل حوالى سنة ١٩٠ م ، وهو يمثل دعوة حارة موجهة إلى الوثنيين ليهتدوا بإصغائهم للوغوس ، الذى يدعى « Protrepticus » ، « الهادى » ، فهو السيد الوحيد الذى ليس فقط يدعونا لنبذ الوثنية ، وإنما خلاله وحده نطلب كمال التغيّر .

[لو أن الشمس غير موجودة لحل الليل فى كل المسكونة ، بالرغم من وجود الكواكب الأخرى فى السماء . هكذا لو لم نعرف اللوغوس لنستضيىء به لما كنا أفضل من صغار الطير (الكتاكيت) تمتلىء سمنة فى الظلام لكى تشوى بالنار .

لنتقبل النور فنتقبل الله ...

إذن ما هى النصيحة التى أقدمها لكم ؟ إنى أحثكم أن تخلصوا . هذا ما يريده المسيح ، وفى كلمة واحدة : إنه يهبكم الحياة مجاناً] ١١:١١٣:٣ ، ٤ ؛ ١١:١١٧:٣ .

غاية هذا العمل هو جذب الوثنيين لقبول الدين الواحد الحق ، تعليم اللوغوس ، الذى بعدما أعلن عنه الأنبياء ظهر السيد المسيح (الحق) .

٢ — المربى

يعتبر هذا العمل امتدادا « للنصح لليونانيين » ، يحوى تعليماً عملياً يعالج السلوك الاجتماعى والشخصى للذين قبلوا نصيحة المقال السابق ، وتبعوا الإيمان المسيحى .

يتكون هذا العمل من ثلاثة كتب : الكتابان الثانى والثالث يقدمان تعليم المربى التى تقود حياتهم بينما يعلن الكتاب الأول عن شخصية المربى .

من هو المربى ؟ إنه ابن الله ، صورة الآب غير الدنس ، الذى صار ملاصقاً لنا خلال ناسوته . هو بلا خطية ، النموذج المثالى الذى نجاهد لنصير على مثاله (١:٢:٢:١،٢) .

« غايته إصلاح النفس وليس مجرد التعليم ؛ يدربها على الحياة الفاضلة ، وليس فقط التمتع بالحياة المتعقلة » ١:١:١:٤ .

٣ ــ المتفرقات

يحوى هذا العمل ثمانية كتب ؛ أهم موضوع يعالجه هو علاقة الديانة المسيحية بالعلوم الدنيوية ، خاصة علاقة الإيمان المسيحى بالفلسفة اليونانية[٢٨] . فى هذا العمل هاجم الهراطقة الغنوسيين ، إذ أقاموا فجوة عظيمة بين الله والعالم ، وفجوة بسيطة بين الله والنفس .

ضمت الكتب السبعة الأولى مقالات عديدة فى مواضيع متباينة يصعب ربطها معاً . هو نفسه يقرر أن كتاباً من هذا النوع يشبه حقلًا مملوءاً أنواع الغروس ؛ الإنسان المجتهد يستطيع أن يجد فيه ما يطلبه وإنما يلزمه أن يبحث عنه (٦:٢:٤ــ٨) . أسرار المعرفة لا يمكن عرضها بطريقة واضحة للقراء الذين لا يستأهلون لها (٥:٨،٩) .

مناقشاته هامة للغاية ، إذ تكشف لنا عن معلم مدرسة اسكندرية ، وعن المسيحيين المحيطين به . يقول فايى E. de Fayé : « ربما يعتبر هذا العمل من أعظم الكتابات المسيحية فى القرنين الثانى والثالث ، وفى نفس الوقت ليس من عمل أصعب منه » .

الكتاب الثامن يبدو أنه ليس امتداداً للكتاب السابع بل هو تجميعات لبعض « المسودات » والدراسات التى استخدمت فى أجزاء أخرى من نفس العمل . ويبدو أنها لم تكن معدة للنشر ، لكنها صدرت بعد نياحته بغير إرادته .

من هو الغنى الذى يخلص ؟

لهذا المقال المختصر أهميته إذ يوضح اهتمام الكاهن بخلاص شعبه مظهراً لهم الطريق .

فى رأى القديس اكليمندس أن وصية الرب : « إذهب بع كل مالك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعالى اتبعنى » مر ١٠:١٨ لا يمكن فهمها بمعنى أن الغِنى فى ذاته يُفقد الإنسان ملكوت السموات . ليس من الضرورى أن يتخلّص الإنسان مما يملكه لكى يخلص ، فإن الخطية ، وليس الغنى ، هى التى تحرم الإنسان من ملكوت السموات[٣٠] .

فى النهاية يخبرنا القديس اكليمندس عن قصة القديس يوحنا والشاب الذى صار بين اللصوص ليؤكد إمكانية أعظم الخطاة فى الخلاص إن تاب بحق .

أعمال اخرى

كتب القديس اكليمندس : « المجمل » Hypotyposes ، يضم تفاسير رمزية لعبارات من العهدين القديم والجديد ؛ كما أن له بعض أعمال مفقودة .

مقتطفات من القديس اكليمندس

+ يُدعى القائد السماوى ، اللوغوس ، « الهادى Protreptikos » عندما يدعو البشرية للخلاص ... وعندما يعمل كطبيب ومعلم يُسمى « المربى Pedagogue » ... هكذا إذ يود اللوغوس بلوغ خلاصنا خطوة فخطوة يستخدم وسيلة ممتازة : فى البداية يهدى ، ثم يؤدب وأخيراً يعلم .

+ كما أن إرادة الله هى عمل ، وتدعى « العالم » ، هكذا فإن رغبته فى خلاص البشر يُدعى « الكنيسة » .

+ الأم تقود أطفالها الصغار ، ونحن نطلب أمنا الكنيسة .

+ أعطى الرب بعد قيامته « المعرفة » ليعقوب البار ويوحنا وبطرس ؛ هؤلاء سلموها لرسل آخرين ، والآخرون للسبعين تلميذاً من بينهم برناباس .

+ + +

٤ ــ أوريجانوس

يقول كواستن : [بلغت مدرسة الإسكندرية أوج عظمتها فى عهد أوريجانوس[١] ، خليفة القديس اكليمنضس ، وهو المعلم والباحث الممتاز فى الكنيسة الأولى ... يحمل فى تعليمه دائرة معارف ، ويعتبر أحد المفكرين المبدعين الذين شاهدهم العالم[٢]].

لُقب « أدمانتيوس » أى « الرجل الفولاذى » إشارة إلى قوة حجته التى لا تقاوم وإلى مثابرته .

طفولته

يعتبر أوريجانوس ابن مصر الأصيل ، يبدو أنه وُلد فى الإسكندرية حوالى عام ١٨٥ م . اهتم به والده ليونيدس ، فهذبه بمعرفة الكتاب المقدس ، وقد أظهر الابن شغفاً عجيباً فى هذا الأمر[٣] .

« كان يطلب منه أن يحفظ جزءاً معيناً كل يوم (من الكتاب المقدس) ... ولم يكن الطفل يكتفِى بالمعنى الواضح السهل للكتاب المقدس بل كان يطلب المزيد ، منكباً منذ ذلك الحين على التأملات العميقة . وكثيرا ما كان يربك والده بأسئلته[٤] ...»

يخبرنا المؤرخ يوسابيوس أن ليونيدس كان يتطلع إلى شغف ابنه بكلمة الله منذ صبوته ، لذا اعتاد أن يصعد إلى فراش أوريجانوس وهو نائم ، ويكشف صدره ويقبّله بوقار كمسكن للروح القدس ، معتبراً نفسه بأنه قد تبارك بكونه أباً لولد كهذا[٦] .

استشهاد ليونيدس

بجانب شبعه بالكتاب المقدس ، تأثر أوريجانوس بالاستشهاد . الاضطهاد الذى أثاره سبتيموس سويروس عام ٢٠٢ فى السنة العاشرة من حكمه ، كان أكثر عنفاً على الكنيسة المصرية[٧] ؛ فيه أُلقى القبض على ليونيدس ووضع فى

السجن . أما أوريجانوس الذى لم يكن بعد قد بلغ السابعة عشرة من عمره فكان يتوق بشغف أن ينال إكليل الاستشهاد مع والده . وفى اللحظة الحاسمة منعته أمه من تحقيق رغبته بإخفاء كل ملابسه حتى يلتزم البقاء فى المنزل[٨] ، ليرعى شئون إخوته الستة ، فأرسل إلى أبيه يحثه بقوة على الثبات ، قائلًا له : « إحذر من أن تغير فكرك من أجلنا ! »

معلم الأدب

بعد أن قُطعت رأس ليونيدس وصودرت ممتلكاته ، التجأ أوريجانوس إلى سيدة من شريفات الإسكندرية ، ساعدته إلى حين ، لكنه لم يحتمل البقاء كثيراً ، لأن معلماً هرطوقياً يدعى بولس الأنطاكى استطاع أن يؤثر على هذه السيدة البسيطة ببلاغته فضمته إلى بيتها ، وتبنته ، وأقامته فيلسوفاً خاصاً بها ، وسمحت له أن ينشر هرطقته بإلقاء محاضرات فى بيتها .

لم يجد أوريجانوس ـــ كمؤمن أرثوذكسى ـــ راحة ، فترك البيت وعكف على تدريس الأدب الدنيوى والنحو لينفق على نفسه وعلى عائلته .

وجد أوريجانوس فى تدريسه الأدب والنحو للوثنيين فرصته للشهادة للإيمان المسيحى بقدر ما تسمح به الظروف ، فكان يعلن عن مركز اللاهوتيات بين الكتابات الوثنية . وبهذا اجتذب بعض الوثنيين الذين جاءوا يطلبون أن يسمعوا منه عن التعاليم المسيحية من بينهم بلوتارخس الذى نال إكليل الاستشهاد وأخوه هيراقليس (ياروكلاس) الذى تسلم أسقفية الإسكندرية[٩] .

أوريجانوس ومدرسة إسكندرية

إذ تشتت مدرسة إسكندرية بسبب الاضطهاد ورحيل القديس اكليمندس وتركها بدون معلم ، عين البابا ديمتريوس أوريجانوس رئيساً للمدرسة ، وهو بعد فى الثامنة عشر من عمره ، وذلك لما رآه فيه من غيرة على الكرازة وقدرة على تعليم الموعوظين . كان لهذا المركز كرامته ، لكنه لم يخلُ من المخاطر ، لأن الاضطهاد الذى بدأ بمنشور سويريس عام ٢٠٢ م لم يزل قائماً يهدد بصفة خاصة الذين يقبلون الإيمان المسيحى ومعلميهم .

أوقف أوريجانوس كل نشاط له وباع كل كتبه المحبوبة لديه(١٠) ، ليكرس حياته بالكامل للعمل الجديد الذى أوكل إليه كمعلم للموعوظين .

حوالى عام ٢١٥ م ، اعتبره القديس الكسندروس أسقف أورشليم كمعلم وصديق له وأنه خليفة الأستاذين المبجلين بنتينوس واكليمنضس بل — وفى عينيه — أعظم منهما . ففى اليوم التالى لنياحة القديس اكليمنضس كتب الكسندروس لأوريجانوس : [إننا نعرف جيداً الأبوين الطوباويين الذين سلكا الطريق قبلنا وسنلحق بهما سريعاً : بنتينوس المعلم الحقيقى الطوباوى واكليمنضس المبجل معلمى ومعينى ، وربما آخرين . وقد تعرفت خلالهما عليك ، إذ أنت هو ممتاز معهما ، يا معلمى وأخى(١١)].

وأود أن أشير هنا إلى دور أوريجانوس فى تطور هذه المدرسة :

١ — ألقى أوريجانوس بنفسه بكل طاقاته لا لدراسة الكتاب المقدس والتعليم به فحسب ، بل وفى تقديم حياته مثلًا للحياة الإنجيلية . وفى هذا يقول تلميذه القديس غريغوريوس صانع العجائب :-[لقد جذبنا بأعماله التى فعلها أكثر من تعاليمه التى علمنا إياها .] ويخبرنا المؤرخ يوسابيوس : [كان سلوكه يتفق مع تعاليمه ، وكانت تعاليمه تتفق مع حياته ، لذلك فإن القوة الإلهية التى كانت تعمل فيه قد دفعت الكثيرين إلى غيرته]. وأضاف أيضا : [كان يكبح جماح نفسه على قدر استطاعته بحياته الفلسفية الصارمة ، أحياناً بتدريب نفسه على الصوم ، وأحياناً بالإقلال من النوم فى حدود معينة . وبسبب غيرته المتأججة لم ينم على فراش قط ، وإنما كان يفترش الأرض . وفوق هذا كله فكر فى ضرورة تنفيذ كلمات المخلص الواردة فى الإنجيل والتى ينصح فيها عدم اقتناء ثوبين أو استعمال أحذية (مت ١٠:١٠) ، أو الاهتمام بالمستقبل (مت ٦:٣٤)(١٢)].

لقد حاول أن يقود تلاميذه وسامعيه فى ذات طريق النسك والإماتة الذى سار فيه منذ شبابه . وبجانب حياته النسكية اهتم بممارسة الصلاة بكونها جزءاً لا يتجزأ من الحياة النسكية ، تسنده فى تحرير النفس ودخوله إلى الاتحاد مع الله . هذا ما يطلبه المسيحى خلال حفظ البتولية(١٣) ، فينسحب عن العالم وهو بعد

يعيش فيه[١٤] ، مقدماً تضحية فى أمور الترف قدر ما يستطيع[١٥] ، مستهيناً بالمجد البشرى[١٦] .

وبسبب حضور نساء يستمعن محاضراته ، ولكى لا تحدث عثرة رأى أن ينفذ حرفياً ما ورد فى الإنجيل من أن أناساً خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السموات (مت ١٩ : ١٢) ، وقد استخدم البابا ديمتريوس هذا التصرف (إخصاء نفسه) ضده .

٢ ــ فى البداية ركز أوريجانوس على إعداد الموعوظين وتهيئتهم للعماد ، لا بتعليمهم الإيمان المسيحى فحسب وإنما بتقديم التعاليم الخاصة بالحياة المسيحية العملية أيضاً فنسمعه يقول : [إن أردتم نوال المعمودية يلزمكم أولًا أن تتعلموا كلمة الله ، وتقطعوا عنكم كل جذور الرذائل ، وتصلحوا حياتكم القفرة البربرية ، وتمارسوا الوداعة والاتضاع ، عندئذ تتهيأون لقبول نعمة الروح القدس[١٧] .]

٣ ــ لم يقف عمل العلامة أوريجانوس عند تهيئة الأعداد الضخمة المتزايدة الجالسة عند قدميه لنوال العماد ، وإنما كان عليه بالحرى أن يهيئهم لقبول إكليل الاستشهاد ، فكل من يقترب إليه إنما بالحرى يجرى نحو خطر الاستشهاد .

وصف يوسابيوس الدور الذى قام به أوريجانوس فى وقت الاضطهاد هكذا : [برز اسمه بين كل المؤمنين ، وذلك بسبب اهتمامه وبرعايته نحو الشهداء القديسين ، سواء كانوا معروفين لديه أو غرباء . كان يرافقهم فى السجن ، ويمكث معهم أثناء المحاكمة ، بل ويبقى معهم حتى لحظات الموت ... غالباً عندما كان يذهب إلى الشهداء يهتم بهم ويحييهم بقبلة دون أى اعتبار لما ينتج عن ذلك ، فكان جمهور الوثنيين المحيطين بهم يثورون ويكادون أن يهجموا عليه ليضعوا حداً لحياته[١٨]].

٤ ــ إذ كان جمهور تلاميذه يلتفون حوله من الصباح حتى المساء رأى أوريجانوس أن يقسمهم إلى فصلين ، واختار تلميذه هيراقليس ــ المتحدث الممتاز ــ ليدرس المبتدئن المبادىء الأولية للتعاليم المسيحية ، أما هو فكرّس وقته لتعليم المتقدمين اللاهوت والفلسفة معطياً اهتماماً خاصاً بالكتاب المقدس .

٥ — إذ ربح أوريجانوس عدداً كبيراً من المدرسة الفلسفية الوثنية كتلاميذ له ، شعر بحاجته إلى تدريب فلسفى أعمق ، الأمر الذى وجده يتحقق فى محاضرات أمونيوس السقاس ، الفيلسوف الإسكندرى الشهير (١٧٤—٢٤٢ م) ، الذى نادى بالأفلاطونية ، وعنه علم بلاتينيوس (٢٠٥—٢٠٧ م) بالافلاطونية الحديثة . هذا الفيلسوف جذبته مدرسة الإسكندرية اللاهوتية ، وتحوّل إلى الإيمان المسيحى ، وله عدة كتب فيها .

وجدير بالملاحظة أن أوريجانوس — على خلاف القديس اكليمندس — لم يكن بالفيلسوف الذى تحوّل إلى المسيحية ، لهذا لم يكن متعاطفاً مع الفلسفة ، ربما لأنه كان يخاف من جمال الأشكال والتعبيرات الفلسفية كفخاخ خطيرة يمكن أن تقتنصه ، وربما كان يشعر أنه ليس لديه الوقت لمثل هذه التفاهات[١٩] .

فى الواقع كان أوريجانوس مبشراً حقيقيا تحقق أنه يلزمه دراسة الفلسفة لكى يقدر أن يشرح المسيحية لقادة الفكر فى عصره ، ويجيب على الأمور الصعبة بالوسيلة التى تناسبهم ، مبرزاً الجوانب التى يحتاج إليها هؤلاء القادة من المسيحية[٢٠] .

فى رسالة كتبها يدافع فيها عن نفسه كطالب يدرس الفلسفة اليونانية كتب : [عندما كرست نفسى تماماً للكتب المقدسة ، وذاعت شهرتى فى الخارج بسبب كفاءتى ، وعندما جاءنى هراطقة وأناس درسوا اليونانية خاصة الفلسفة ، بدا لى أنه من الضرورى أن أفحص تعاليم الهراطقة وأقف على ما يقوله الفلاسفة من الحق . فى هذا أتمثل ببنتينوس الذى ألمّ قبلى بقدر ليس بقليل من المعرفة وأفاد كثيرين بواسطتها[٢١]].

والآن ما هى نظرة أوريجانوس للفلسفة والعلوم الوثنية ؟

فى رأى أوريجانوس أنّ « كل حكمة هى من الله[٢٢] » ، سواء كانت معرفة خاصة بالفلسفة أو الرياضيات أو الطب أو الموسيقى[٢٣] . فى الواقع أدان أوريجانوس الفلسفة ، إذ يقول : [إياك أن تقتات بطعام الفلسفة المخادع ، فإنه قد يبعدك عن الحق[٢٤]]، وذلك لأن الوثنيين أفسدوها بإدخال أخطائهم إلى الحق ، فلم تعد تعلم شيئاً عن إرادة الله[٢٥] .

أشار أوريجانوس إلى الأخطاء التى فى الأنظمة الفلسفية ، وسعى أن يحفظ تلاميذه منها ، وفوق هذا كله كان حذراً لئلا ينحرفوا وراء تعليم فاسد أو معلم غريب يقودهم إلى نسيان السيد المسيح ، أو على الأقل يقلل من إخلاصهم الشديد له . كان الرسول بولس هو المثل الأعلى له فى ذلك ، وكأنه كان يردد معه : « من يفصلنا عن محبة المسيح ؟!» مضيفاً إلى ذلك : [أستطيع أن أقول بكل ثقة إنه لا محبة الحروف الدنيوية ولا سفسطة الفلاسفة ولا أخطاء المنجمين الخاصة بدوران الكواكب ، ولا تأليه الشياطين الكاذبة ، ولا أى علم آخر خاص بالمستقبل مستخدماً خداعات شريرة تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التى فى المسيح يسوع ربنا(٢٦)].

نظامه فى تعليم الفلسفة والعلوم الوثنية يمكن تلخيصه فى نقطتين :

١ ـــ اعتاد أوريجانوس أن يبدأ تعليمه بالخطابة ، بعد ذلك بعض المعارف العلمية مثل الطبيعيات والرياضيات والهندسة والفلك(٢٧) . كان ذلك إعداداً تلحقه دراسة الفلسفة .

٢ ـــ أراد من تلاميذه أن يعرفوا شيئاً عن النظريات الفلسفية ماعدا فلسفة الأبيقوريين ، مع عدم التركيز على فلسفة واحدة . وقد قدم لنا القديس غريغوريوس صانع العجائب فكرة عن نظامه ، قائلًا : [اقتطف من كل فلسفة ما هو حق ونافع وقدمه لنا ، أما ما هو خطأ فرذله ... نصحنا ألّا نعطى ولاءنا لأى فيلسوف معين حتى وإن كان قد نال إعجاباً عالمياً ككامل فى الحكمة ، إنما يلزمنا أن نلتصق بالله وحده وبأنبيائه(٢٨)].

رحلات أوريجانوس

١ ـــ حوالى عام ٢١٢ م زار أوريجانوس روما فى أثناء أسقفية زفيرينوس ، وفى حضرته ألقى القديس هيبوليتس مقالًا عن كرامة المخلص(٢٩) .

٢ ـــ بعد سنة ٢١٥ بفترة قصيرة نجده فى بلاد العرب ، حيث ذهب إليها بناء على دعوة من حاكم تلك البلاد الذى كان يرغب فى التعرف على تعاليمه ، كما دُعى إلى العربية عدة مرات ليتناقش مع الأساقفة(٣٠) . وقد أشار المؤرخ

يوسابيوس إلى اثنتين من هذه المناقشات ، نذكر منها أنه فى عام ٢٤٤ م انعقد مجمع عربى لمناقشة وجهة نظر بريلوس أسقف Bostra فى شخص السيد المسيح . انعقد هذا المجمع على مستوى واسع أدان الأسقف بسبب مناداته أن الله أقنوم واحد ، وقد حاولوا باطلًا إقناعه أن يعود إلى الإيمان المستقيم[٣١] . أسرع أوريجانوس إلى العربية ، ونجح فى إقناع الأسقف الذى يبدو أنه بعث إليه رسالة شكر[٣٢] .

هذا الارتباط بين اوريجانوس والعربية هو امتداد لارتباط بنتينوس بها[٣٣] .

٣ ــ حوالى عام ٢١٦ م إذ نهب الإمبراطور كاركالا مدينة الإسكندرية وأغلق مدارسها واضطهد معلميها وذبحهم ، قرر أوريجانوس أن يذهب إلى فلسطين . هناك رحب به صديقه القديم الاسكندر أسقف أورشليم كما رحب به ثيؤكتستوس أسقف قيصرية فلسطين ، اللذان دعواه أن يشرح الكتاب المقدس فى اجتماعات المسيحيين فى حضرتهما . غضب البابا ديمتريوس الإسكندرى جداً ، لأنه حسب عادة كنيسة الإسكندرية لا يستطيع العلمانى أن يعظ فى حضرة الأسقف ، فأمره بالعودة إلى الاسكندرية سريعاً . وبالفعل أطاع أوريجانوس بطريركه فى خضوع ، وبدت الأمور تسير كما كانت عليه قبلًا ، لكن هذا الحدث صار مقدمة لصراع أوشك أن يحدث بعد حوالى ١٥ عاماً .

٤ ــ مع بداية حكم اسكندر سويرس (٢٢٢ــ٢٣٥ م) ، أرسلت ماميا والدة الإمبراطور حامية حربية تستدعى أوريجانوس إلى أنطاكيا كى يشرح لها بعض الأسئلة . وكما جاء فى يوسابيوس أن أوريجانوس بعد أن لبث معها فى القصر الإمبراطورى بعض الوقت أظهر لها فيه أشياء كثيرة لمجد الله وأوضح لها سمو التعاليم الإلهية أسرع فى العودة إلى مدرسته[٣٤] .

٥ ــ الرحلة التالية لأوريجانوس كانت إلى اليونان ، وقد استغرقت عامين غائباً عن الإسكندرية . ذهب إلى آخائية ليعمل صلحاً ، وكان يحمل تفويضاً كتابياً من أسقفه[٣٥] . فى طريقه عبر بفلسطين ، وفى قيصرية سيم قساً بواسطة أسقفها[٣٦] . فقد بدا للأساقفة أنه لا يليق بمرشد روحى مثل أوريجانوس بلغ أعلى

المستويات أن يبقى علمانياً . هذا وقد أرادوا تجنب المخاطر التى يثيرها البابا ديمتريوس بسماحهم له أن يعظ فى حضرتهم وهو علمانى . وقد اعتبر البابا ديمتريوس هذه السيامة أكثر خطأ من التصرف السابق ، حاسباً إياها باطلة لسببين :

ا ـــ أن أوريجانوس قبل السيامة من أسقف غير أسقفه وبدون إذنه .

ب ـــ أن أوريجانوس قد خصى نفسه ، الأمر الذى يحرمه من نوال درجة كهنوتية .

إدانة أوريجانوس

دعا البابا ديمتريوس مجمعاً من الأساقفة والكهنة فى الإسكندرية . رفض المجمع القرار السابق ، مكتفياً باستبعاده عن الإسكندرية[٣٧] ، لكن هذا لم يُرضِ البابا ، فدعا مجمعاً آخر من الأساقفة عام ٢٣٢ م ، قام بإعلان بطلان كهنوته واعتباره لا يصلح بعد للتعليم .

حرم أيضا أوريجانوس لأخطاء وردت فى كتاباته ، مثل :

١ ـــ آمن بأن النفوس خلقت قبل الأجساد ، وأنها ارتبطت بالأجساد كتأديب لها عن خطايا سابقة ارتكبتها[٣٨] ، وأن عالم الحس بالنسبة لها ليس إلا مكاناً للتطهير .

٢ ـــ نفس المسيح لها وجود سابق قبل التجسد ، اتحدت باللاهوت .

٣ ـــ ستعود كل الخليقة إلى أصلها فى الله ، ويخلص كل البشر (وأن العقوبة الأبدية لها نهاية) .

٤ ـــ سيخلص الشيطان وكل الأرواح الشريرة ، وإذ وجه إليه اللوم على ذلك اعترض قائلًا : « إنها مجرد فكرة لم تكن قد بلغت نظرية[٤١] ».

على أى الأحوال ، انتشر قرار المجمع فى مصر وعرف فى الغرب ، لكن تجاهلته كنائس فلسطين والعربية وفينيقية وآخائية حيث كان أوريجانوس معروفاً لديها .

أطاع أوريجانوس القرار متحاشياً كل انقسام ، وبروح مسيحية نبيلة بعيدة عن الأنانية حسب قرار استبعاده عن الموضع الذى كان يحبه أكثر من أية بقعة أخرى على الأرض ليس بالتضحية العظيمة جداً من أجل حفظ وحدة الكنيسة . فبالرغم من وجود أصدقاء لهم سلطانهم فى الإسكندرية وفى الخارج ، وكان يمكنه أن يقود حركة مضادة للبابا لكنه أبى أن يفعل شيئاً من هذا . وفى هدوء ترك الإسكندرية شاعراً أنه لن يوجد من يقدر أن يفصله عن كنيسته المحبوبة ، إذ يقول : [يحدث أحياناً أن إنساناً يُطرد خارجاً ويكون بالحق لا يزال فى الداخل ، والبعض يبدون كما لو كانوا فى الداخل مع أنهم فى الحقيقة هم فى الخارج[٤٣]].

مدرسة جديدة

إذ ترك أوريجانوس الإسكندرية صارت قيصرية فلسطين وطنه الجديد ، وقد رحّب به الأساقفة بفرح . « التصقوا به وحسبوه معلمهم الوحيد ، وسمحوا له بتفسير الأسفار المقدسة وأن يقوم بتعليم الكنيسة كلها[٤٤] ». حثه الأسقف ثيؤكتستوس على إنشاء مدرسة للاهوت هناك ، رأسها قرابة عشرين عاماً ؛ فى هذه المدرسة تتلمذ القديس غريغوريوس العجائبى لمدة خمسة أعوام .

بناء على طلب الأسقف كان أوريجانوس يشرح الكتاب المقدس على الأقل مرتين كل أسبوع : الأربعاء والجمعة[٤٥] . هذا العمل الجديد زاد أوريجانوس اتضاعاً ، إذ كان يؤمن أن الكارز يلزمه أولًا وقبل كل شيء أن يكون رجل صلاة . فى مرات كثيرة حينما كان يقف أمام عبارة صعبة يتوقف عن الكلام ويطلب من سامعيه الصلاة من أجله لينال فهماً أفضل للنص[٤٦] .

أوريجانوس وجد له صديقاً غنياً ردّه عن الغنوسية يُدعى أمبروسيوس . هذا الصديق ضغط على أوريجانوس لكى يكتب وقد أمده بسبعة كتّاب يعملون معه بالتناوب ، كما أمده بمجموعة من الفتيات يقمن بعمل نُسَخ جميلة لكتبه . يقول القديس أبيفانيوس إنه وُجد ستة آلاف نسخة من كتبه ...

اضطهاد مكسيميان

خلال الاضطهاد الذى أثاره مكسيميان التجأ أوريجانوس إلى كبادوكية قيصرية . فى هذا الاضطهاد ، أُلقى القبض على صديقيه القديمين : أمبروسيوس وبروتوكتيتوس كاهن قيصرية ، وأُودعا فى السجن . كتب أوريجانوس إليهما مقالًا : « الحث على الاستشهاد » ، فيه نظر إلى الاستشهاد كأحد البراهين على صحة الحق المسيحى ، وكاستمرار لعمل الخلاص . وإذ أُطلق سراح صديقيه عاد أوريجانوس إلى قيصرية فلسطين .

سافر أوريجانوس إلى أثينا خلال بيثينية حيث قضى عدة أيام فى نيقوميدية ، وهناك تسلم رسالة من يوليوس أفريقيانوس ، يسأله فيها عن قصة سوسنة إن كانت جزءاً أصيلًا من سفر دانيال ، وأجابه برسالة مطوّلة بعثها إليه من نيقوميدية .

فى أيام دقيوس (٢٤٩ـــ٢٥١ م) ثار الاضطهاد مرة أخرى ، وأُلقى القبض على أوريجانوس . احتمل عذابات فى جسده ، ووضع فى طوق حديدى ثقيل ، وألقى فى السجن الداخلى ، وربطت قدماه فى المقطرة أياماً كثيرة ، وهُدد بالإعدام حرقاً[٤٧] . احتمل أوريجانوس هذه العذابات بشجاعة ، وإن كان لم يمت أثناءها ، لكنه مات بعد فترة قصيرة ، ربما متأثراً بالآلام التى لحقت به .

قبل أن يموت أرسل إليه البابا الإسكندرى ديونسيوس الذى خلف هيراقليس رسالة « عن الاستشهاد » ، لعله بذلك أراد تجديد العلاقة بين العلامة الاسكندرى أوريجانوس وكنيسة الاسكندرية ».

+ + +

كتابات أوريجانوس

ضاع الجزء الأعظم من كتابات أوريجانوس بسبب الصراعات المرة التى نشبت حول أرثوذكسيته ، فلم تكن قراءة أعماله محرَّمة ، وإنما مجرد الاحتفاظ بها كان يحسب عملاً غير شرعى . أما معظم ما تبقى من كتاباته فهى ليست فى الأصل اليونانى ، بل جاءت إلينا خلال الترجمات اللاتينية ، خاصة التى قام بها روفينوس أسقف أكويلا والقديس جيروم .

القائمة الكاملة لكتابات أوريجانوس التى أضافها يوسابيوس إلى سيرة صديقه ومعلمه بامفيليوس فقدت . ويقدر القديس جيروم مقالات أوريجانوس بألفين ، أما عند القديس أبيفانيوس فستة آلاف(٤٨) . شهد القديس جيروم عن كثرة كتاباته بقوله : [من منا يقدر أن يقرأ كل كتبه ؟!].

الترجمات اللاتينية

الترجمات اللاتينية لأعمال أوريجانوس غير دقيقة ، خاصة التى قام بها روفينوس ، فقد أراد أن يقدم مؤلفه للناطقين باللاتينية ، فلم يتردد عن أن يختصر بعض العبارات التى بدت له مطوّلة ، وأن يضيف شروحات من عنده حسبها ضرورية . كما اعتقد روفينوس أن كتب أوريجانوس امتدت إليها أيدى الهراطقة وحرفوها ، فرأى من حقه أن ينقيها مما بدت له غير أصيلة(٤٩) .

أولاً : النصوص النقدية

يعتبر كتابه هكسبلا « السداسيات » أول محاولة قامت على مستوى علمى فى دراسة نصوص العهد القديم ، وهو عمل ضخم كرّس له أوريجانوس حياته كلها(٥٠) . فقد نسق ستة أعمدة متوازية تشمل النصوص التاليه :

ا ــ النص العبرى للعهد القديم .

ب ــ النص العبرى بحروف يونانية لأجل النطق .

جـ ــ الترجمة السبعينية (اليونانية) .

د ــ الترجمة اليونانية لسيماخوس ، وهو أبيونى ، قام بعمل الترجمة-حوالى نهاية القرن الثانى-للقارىء غير اليهودى .

هـ ــ الترجمة اليونانية لأكيلا من بنطس ، وهو مسيحى تهوّد ، ترجمته حرفية ، وضعها لمقاومة استخدام المسيحيين للترجمة السبعينية ، وضعها حوالى عام ١٢٨ م .

و ــ الترجمة اليونانية لثيؤدوتيون ، وهو يهودى من أفسس .

هذا وقد أضاف أوريجانوس ثلاث ترجمات لم يُعرف أسماء القائمين بترجمتها ، ضمها إلى السداسيات ، حتى أظهر أيضاً « التساعيات (إنيبلا) » .

ثانياً : التفاسير

فى هذا المجال جاءت أعماله هائلة ، شملت تقريباً كل حقل الكتاب المقدس ، وقد أخذت ثلاثة أشكال أدبية :

ا ــ ملاحظات مختصرة Scholia ، غالبيتها ملاحظات نحوية بخصوص بعض العبارات الغامضة والصعبة .

ب ــ عظات على فصول أو عبارات منتخبة من الكتاب المقدس ، ألقيت فى اجتماعات ليتورجية لتثقيف الشعب .

جـ ــ تعليقات تحوى تفاسير رمزية وجوانب عقيدية ، لا تزال لهذه التعليقات أهميتها فى مجال التفسير .

جاءت أعماله التفسيرية تحوى خليطاً غريباً من ملاحظات أدبية ونصوص وتاريخ وتفسير المعانى لغوياً وملاحظات لاهوتية وفلسفية[٥١] .

ثالثاً : أعماله الدفاعية

أهم اعماله الدفاعية هو « ضد صلسس (كلسس) Contra Celsus » ، وهو مقال يضم ثمانية كتب فى إجابة مطوّلة ضد صلسس كتبها حوالى عام ٢٤٨ (صلسس كتب حوالى عام ١٨٠ م) .

صلسس هذا كان ذا ثقافة عالية (كان أبيقوريا) ، له معرفة خاصة بالأفكار الأفلاطونية ، وبجانب معرفته بالفكر اليونانى وفلسفات عصره تعرف على العهد

القديم والأناجيل الاربعة وعلى الخيط الرئيسى للاهوت البولسى . هاجم العهد القديم وفى نفس الوقت استخدمه لمهاجمة المسيحية .

إن دفاع أوريجانوس ضد صلسس له أهمية عظمى بلا شك ، فقد اتسم بنظرة روحية ثاقبة ، ومعرفة غزيرة مع فكر ناضج متمكن(٥٢) .

رابعاً : الكتابات العقيدية

١ ــ عن المبادىء περι αρχων

مقال عقيدى فى أربعة كتب ، يعتبر أول محاولة قدمت لإيجاد منهج للاهوت المسيحى(٥٣) . وقد عالجت هذه الكتب بالترتيب : الله ، خلقة العالم ، سقوط الإنسان ، الخلاص بيسوع المسيح ، الخطية ، الحرية الإنسانية ، الكتاب المقدس كمصدر للعقيدة .

الأصل اليونانى مفقود ، كذلك ترجمة القديس جيروم له الدقيقة ، والذى بين أيدينا ترجمة روفينوس اللاتينية التى كما شهد المترجم نفسه أنه غيّر فى النص لينقيه من العبارات الغامضة . .

٢ ــ مناقشة مع هيراقليدس(٥٤)

وُجد بين مجموعة من أوراق البردى التى اكتشفت فى طرة بجوار القاهرة عام ١٩٤١ م مخطوط يرجع إلى حوالى نهاية القرن السادس ، يحوى نص المناقشة التى دارت بين أوريجانوس والأسقف هيراقليدس . وهى تمثل سجلًا كاملًا لمناقشة واقعية حدثت فى كنيسة ببلاد العرب فى حضور الأساقفة والشعب حوالى عام ٢٤٥ م . ويبدو من المناقشة أن أوريجانوس كان يتكلم وهو فى سلطة المعلم .

فى الجزء الأول منها تدور المناقشة حول الآب والابن ، فيشير أوريجانوس إلى الكتاب المقدس ليظهر ماذا يعنى أن الاثنين هما واحد :

ا ــ آدم وحواء هما اثنان لكنهما جسد واحد (تك ٢ : ٢٤) .
ب ــ الإنسان البار المرتبط بالرب يصير معه روحاً واحداً (١ كو ٦ : ١٧) .
جـ ــ « ربنا ومخلصنا فى علاقته بالآب إله المسكونة ليس معه جسداً واحداً

ولا روحاً واحداً (بالمعنى الوارد فى ١ كو ٦:١٧) ، بل ما هو أعظم من الجسد والروح ، هما الله الواحد » .

وفى نهاية المناقشة عالج موضوع خلود النفس ، حيث سأله الأسقف فيلبس فى هذا الشأن ، وأجابه أوريجانوس بأن النفس خالدة من ناحية وقابلة للموت من ناحية أخرى ، إذ يوجد ثلاثة أنواع من الموت : موت الخطية (رو ٦:٤) ، وموت عن الله (خر ١٨:٤) ، والموت الطبيعى . فالنفس لا تسقط تحت الموت الأخير ، الموت الطبيعى ، ولو أن الذين يعيشون فى الخطية يشتهونه ولا يجدونه (رؤ ٩:٦) . لكن النفس تخضع للموت الأول والثانى ، بهذا يمكننا أن نسميها قابلة للموت .

٣ ـــ عن القيامة

٤ ـــ المتفرقات Stromata, Miscellaneous

هو عمل مفقود ، إلا شذرات قليلة منه . يشير العنوان إلى موضوعات متنوعة لم تُناقش بترتيب خاص .

خامساً : الكتابات العملية

١ ـــ عن الصلاة : مقال وجهه إلى صديقة أمبروسيوس وسيدة غير معروفة تُسمى تاتينيا ، ربما أخت أمبروسيوس أو زوجته ، عالج فيه موضوع الصلاة ، وتحدث عن وسائل الصلاة الحقيقية ، معطياً توجيهات عملية . فيه يبرز « أيوب » كمصارع من أجل الفضيلة . وقد أوضح هذا العمل بأكثر جلاء عن بقية كتاباته عمق حياة أوريجانوس وغيرته الروحية .

٢ ـــ حثه على الاستشهاد : كتب هذا المقال فى قيصرية فلسطين فى بدء اضطهاد مكسيميانوس ، وجهه إلى أمبروسيوس وبروتكتيوس ، اللذين أُلقيا فى السجن . لقد أوضح أنه بالاستشهاد يمكن للإنسان ككاهن حقيقى أن يقدم نفسه ذبيحة لله ، وذلك كما أن « يسوع خلصنا بدمه الثمين ، هكذا بدم

الشهداء الثمين آخرون يُنقذون » . الاستشهاد « عمل ذهبى » ، « كأس الخلاص » .

٣ ـــ عن القيامة (الفصح) : فى المخطوط الذى وُجد بطُرة عام ١٩٤١ وبه « المناقشة مع هيراقليدس » وُجدت مقتطفات عن مقال لأوريجانوس عن القيامة التى لم يكن يُعرف عنها إلا القليل جداً .

٤ ـــ الرسائل : اقتبس جيروم أربع مجموعات مختلفة من رسائل العلامة أوريجانوس ، إحداها ضمت تسعة مجلدات ، لابد أنها هى التى قام بنشرها يوسابيوس(٥٥) ، والتى شملت أكثر من مئة رسالة ؛ ولا يوجد من رسائله سوى رسالتين :

ا ـــ وردت فى الفيلوكاليا فصل ١٣ ، رسالة موجهة من أوريجانوس إلى تلميذه السابق غريغوريوس الصانع العجائب .

ب ـــ رسالة ثانية وجهها إلى يوليوس أفريقيانوس التى سبقت الإشارة إليها .

+ + +

أوريجانوس والرمزية

أوريجانوس والكتاب المقدس

يمتدح القديس غريغوريوس صانع العجائب أوريجين كمفسر للكتاب المقدس ، قائلًا : [الروح القدس الذى يوحى للأنبياء ... كرَّمه كصديق ، وعينه كمفسر خاص به ...]، [له القدرة أن يصغى لله ويفهم أقواله ويشرحها للبشر لكى يفهموها هم أيضاً(٥٦)].

يخبرنا يوسابيوس أن أوريجانوس كان يقضى الليل معظمه فى دراسة الكتاب(٥٧) ، كان الكتاب مركز حياته(٥٨) ، وينبوع حياته التقوية والأداة التى يجاهد بها لبلوغ الكمال .

اهتم بدراسة النص ، ولكى يحقق ذلك تعلم العبرية[٥٩] ، كما قام بتجميع النصوص الموجودة فى عصره الخاصة بالعهد القديم مكوناً كتاب « السداسيات » .

التفسير الحرفى

ناقش مشكلتين بخصوص العهد القديم واجهتا الكنيسة الأولى :

١ ــ كان اليهود يتوقعون مجيء المسيا بتحقيق نبوات العهد القديم حرفياً ، كأن يسيطر ملكهم على العالم كله ، لذا رفضوا يسوع كمسّيا حقيقى[٦٠] .

٢ ــ رفض الغنوسيون العهد القديم ، إذ تعثروا ببعض عبارات خاصة بالله مثل كونه يغضب أو يندم أو يغير رأيه ... تعثروا لأنهم فسروا العبارات حرفياً وليس روحياً[٦١] ...

يرى أوريجين أن هاتين المجموعتين أساءتا فهم الكتاب المقدس بسبب تمسكهما بالتفسير الحرفى بمبالغة ، لهذا وضع نظريته ، قائلًا بوجود ثلاثة معانٍ مختلفة فى الكتب المقدسة : المعنى الحرفى ، والمعنى الأخلاقى ، والمعنى الروحى .

نظرية أوريجانوس

يقول أوريجانوس : [كلمات الكتب المقدسة يلزم أن تُطبع فى النفس بإحدى طرق ثلاث :

١ ــ يُهذب غير المثقفين بالحرف ذاته ، الذى ندعوه المعنى الواضح .
٢ ــ يجد من هم أسمى منهم، بُنيان نفوسهم (فى المعنى الأخلاقى) .
٣ ــ يجد الكاملون بنيانهم فى الناموس الروحى ، وهو يحوى ظلال البركات العتيدة[٦٢] .]

يتكون الإنسان من جسد ونفس وروح ، هكذا أعد الله الكتاب المقدس بنفس الطريقة لأجل خلاص الإنسان .

وجد أيضا فى فلك نوح مادة لتحقيق نظريته ، إذ يتكون من ثلاثة طوابق : الطابق الأسفل يشير إلى المعنى الحرفى أو التفسير التاريخى للكتاب المقدس ،

والطابق الأعلى يشير إلى التفسير الروحى أو السرى mystical ، بينما الطابق المتوسط يشير إلى التفسير الأخلاقى[٦٣] .

الرمزية

يرى أوريجين أن فهم الكتاب المقدس هو : « فن الفنون » و « علم العلوم[٦٤] ». كلمات الكتاب المقدس هى جسده ، أو العنصر المنظور الذى يخفى روحه العنصر غير المنظور . هذا الروح هو الكنز المخفى فى الحقل ، مخفى وراء كل كلمة[٦٥] ، وراء كل حرف ، بل وراء كل « يوتا » مستخدمة فى كلمة الله المكتوبة[٦٦] . هكذا « كل ما فى الكتاب المقدس هو سرّ[٦٧] ».

هذا الفهم الروحى للكتاب المقدس هو نعمة يهبها المسيح للمؤمنين الكاملين . فإن من لهم روح يسوع هم وحدهم يقدرون على إدراك المعانى الروحية للكتب المقدسة[٦٨] ، أى يدخلون إلى حجال العرس الأبدى القائم بين المسيح والنفس .

ننال هذه النعمة بالصلاة ، إذ يليق بنا أن نبكى ونتوسل للرب لكى يفتح أعيننا الداخلية كما فتح عينى الأعمى الذى كان جالساً فى طريق أريحا (مت ٢٠ : ٣٠). يقول أوريجانوس إنه يلزمنا الصلاة لأننا غالباً ما نكون بجوار آبار مياه الله التى لكتاب الله المقدس لكننا نفشل فى التعرف عليها بأنفسنا .

من الناموس إلى الإنجيل

الناموس هو ظل الإنجيل ، والأخير هو ظل الملكوت العتيد .

فى أحد تعليقاته على سفر نشيد الأنشاد ، يشرح العلامة أوريجين العلاقة بين الناموس والإنجيل ، قائلًا : [عندما جاء المسيح بقى أولا إلى حين على الجانب الآخر من الحائط . الحائط هو العهد القديم الذى جلس السيد المسيح خلفه حتى يعلن ذاته لشعبه . أخيراً جاء الوقت وبدأ يعلن عن نفسه خلال النوافذ والشبابيك ؛ أما النوافذ فهى الناموس والأنبياء والنبوات السابقة . بدأ يصير منظوراً من خلالها ، معلناً نفسه للكنيسة التى كانت جالسة فى الداخل ،

مستغرقة فى حرفية الناموس . لقد سألها أن تخرج وتتحد به . فإنها إن لم تخرج ، أى إن لم تترك الحرف إلى الروح لا تقدر على الاتحاد بالمسيح ، ولا أن تكون واحداً مع عريسها . لهذا دعاها وسألها أن تترك المنظورات لأجل الأمور التى لا ترى . هذا هو السبب الذى لأجله سألها أن تترك (حرفية) الناموس من أجل الإنجيل[٦٩]].

+ + +

أوريجانوس والأوريجانية

إذ قدمت فكرة عن أعمال أوريجانوس فى نشر كلمة الله وتقديم تفاسير للكتاب المقدس بفيض وفي اقتناء بعض الفلاسفة للإيمان ، أقول إنه يصعب جداً تقييمه ، فإنه حتى فى أيامه وجد كثير من الكنسيين مثل القديس أبيفانيوس أسقف سلاميس بقبرص والقديس جيروم كانوا فى الفترة الأخيرة يهاجمون كتاباته بكونها هرطوقية . يفسرون الخلط بين ما هو أرثوذكسى وما هو هرطوقى فى كتاباته على أن نواياه الحقيقية هى هرطوقية ، وأنه إنما أدخل أفكاراً أرثوذكسية ليفسد أفكار البسطاء . ومن الناحية الأخرى أصر كثير من الكنسيين فى ذلك الوقت عينه أن يعلنوا بأنه لم يكن يطلب شيئاً إلا أن يكون عضواً ملتزماً فى الكنيسة .

أثار أتباعه انقساماً عنيفاً وسط الرهبان المصريين ، وقد دفعوا البابا ثاوفيلس الإسكندرى أن يرتكب خطأً خطيراً ، ألا وهو إدانة القديس يوحنا الذهبى الفم بطريرك القسطنطينية .

أخيراً ، فإن الكنيسة القبطية حرمت أوريجانوس فى أيام حياته حتى تحجب أفكاره عن أعضائها ، بينما أخذ الخلقيدونيون ذات القرار مؤخراً فى مجمع القسطنطينية الثانى عام ٥٥٣ م .

والآن أود أن أقدم فكرة مختصرة عن أخطائه التعليمية ، وإن كان قد أعلن هو بأنها قد أُدخلت فى كتابته بغرض تشويه صورته .

١ ــ **الوجود السابق للنفوس** : ضللت هذه الفكرة مفكرين كثيرين منذ أيام أفلاطون ، إذ ظنوا أنها تقدم لهم حلًا لمشكلة عويصة ، هى : كيف يمكن تفسير التفاوت فى (خصائص) النفوس دون المساس بعدالة العناية الإلهية ؟[٧١] يقول أفلاطون إن الله ليس مسئولًا عن هذا التفاوت ، إنما النفس اختارت نصيبها قبل ميلاد الإنسان . قبل أوريجانوس هذه النظرية ، لكنه لم يقبل فكرة أفلاطون الخاصة بتناسخ الأرواح أى بانتقالها من جسد بشرى الى آخر[٧٢] ، كما رفض فكرة تناسخ الأرواح الافيثاغورى ، التى تنادى بتناسخها فى أجساد حيوانات[٧٣] . لقد نادى بأن كل الأرواح أزلية ، خلقها الله متساوية[٧٤] ، وأن العالم الحسى بالنسبة لها ليس إلا مكاناً للتطهير (من خطايا سابقة للنفس قبل لبسها الجسد).

٢ ــ خلاص الشيطان وكل الكائنات العاقلة وعودتهم إلى مسرة الله وصداقته . يعتبر اوريجانوس أول مسيحى ينادى بالخلاص الشامل . ففى كتابه المبادىء الذى كتبه فى شبابه علّم بالإصلاح النهائى لكل الخليقة العاقلة ، إلا أنه يبدو أنه عدّل نظريته فيما بعد واستثنى الشيطان من التوبة النهائية والخلاص .

فى تفسير العبارة البولسية « جسد المسيح » ، يقول أوريجانوس : « إنه كل البشرية ، بل بالحرى كل الخليقة[٧٧] » .

٣ ــ **أجساد القيامة** : يرى أوريجانوس أن الله روح ، وأن كل تصوّر له ولسماته فى شكل بشرى غير صادق بالنسبة لطبيعته الحقيقية .

اتهمه جوستنيان فى رسالته إلى ميناس بأنه يؤكد : « أن فى القيامة تقوم الأجساد أثيرية » ، غير أن هذا الاتهام ليس أكيداً بعد ، لأن أوريجانوس فى كتاباته يدافع عن تعليم الكنيسة الخاص بقيامة الأجساد ضد فكرتين :

ا ــ الحرفية السخيفة التى تصور عودة الجسد بكل أعماله الجسمانية فى اليوم الأخير .

ب ــ رأى الغنوسيين والمانيين الذين يصرون على عدم خلاص الجسد .

يبدأ التفسير الذى قدمه على أساس أن القوام المادى لكل الأجساد بما فيها

أجساد البشر، فى حالة تحرك مستمر، وأن خواصها تتغير من يوم إلى يوم، وإن كان لكل واحد شكل مميز يبقى بدون تغيير . هذا يوضحه نمو الإنسان من حالة الطفولة إلى النضوج ، فإن جسد الإنسان يبقى متميزاً كما هو رغم التغيير الجسمانى (الفيزيقى) الكامل . والمثل الآخر هو يسوع التاريخى ، فقد وصف جسده فى وقت بأنه بلا شكل ولا جمال (إش ٥٣ : ٢) بينما ارتدى بهاء التجلى فى موضع آخر[٨٢] .

يقول Tixeront إن هذه التعاليم الأوريجانية لم تكن ذات آثار تذكر ، خاصة فى الشرق ، لكن ظهر أثرها فى الكنيسة اللاتينية[٨٣] . فلقد دان القديس ديمتريوس بابا الاسكندرية العلامة أوريجانوس ودان تعاليمه فى مجمع محلى . والقديس ثاوفيلس بابا الاسكندرية صار مقاوماً لتلاميذ أوريجانوس بعد أن كان يحتضنهم ، وقد نجح فى إدانة هذه التعاليم فى مجمع بالإسكندرية سنة ٣٩٩ م ، مقنعاً القديس أبيفانيوس أن يفعل ذات الأمر فى قبرص عام ٣٩٩ أو عام ٤٠١ م ، كما كاتب القديس جيروم ليحثه على ترجمة رسائله الفصحية والمجمعية فى ذات الأمر (مقاومة الأوريجانية).

أمّا فى الغرب فكان القديس جيروم فى البداية معجباً للغاية بأوريجانوس ، واقتبس القديس امبروسيوس الكثير جداً من كتابات أوريجانوس . أما روفينوس فقد قام بالدور الرئيسى فى نشر التعاليم الأوريجانية بترجمته كتاب « فى المبادىء » عام ٣٩٧ م[٨٤] . وقد وجدت هذه التعاليم كثيرين من الكهنة والرهبان وعلى وجه الخصوص من الشعب لاحتضانها . وكان لهذه التعاليم أثرها على القديس أغسطينوس[٨٦] بطريق أو آخر ، وأيضا على أوروسيوس[٨٧] ، إذ قُدمت تحت اسم رحمة الله وفاعلية الإيمان الحقيقى بالمسيح فى الخلاص[٨٨] .

فى عام ٤٠٠ م أدان أنسطاسيوس بروما تعليم أوريجانوس ، وحرّم الإمبراطور قراءة كتبه[٨٩] (إذ ظهر أثرها على الغرب) .

فى عام ٥٤٢/٥٤٣ م نشر الامبراطور جوستنيان تفنيداً مسهباً ضد الأوريجانية كهرطقة خطيرة ، وفى عام ٥٥٣ م أدان مجمع القسطنطينية الثانى هذه البدعة .

الأوريجانية ومأساة القديس يوحنا الذهبي الفم[٩٠]

أدت تعاليم أوريجانوس الخاصة بالوجود المسبق للنفوس ، وبالإصلاح النهائى لكل الكائنات العاقلة ، وبأجساد القيامة ، إلى إدانتة فى أيامه بالإسكندرية . واضطر أوريجانوس أن يترك وطنه ويستقر فى فلسطين حيث أسس مدرسة لاهوتية هناك . بعد موته ، وجدت كتاباته معجبين بها ، خاصة فى منطقة نتريا وسط الرهبان المصريين ، حيث عاش هناك أمونيوس وإخوته الثلاث الطوال القامة[٩١] . لقد أنشأوا جماعة أوريجانية منكبة على دراسة الكتاب المقدس . وعلى نقيض ذلك كان رهبان الاسقيط بسطاء للغاية ، انشغلوا فى الممارسات العملية للعبادة ، متطلعين إلى الأوريجانيين كأعداء للرهبنة الحقة ، لأنهم أدخلوا الفلسفة إلى الحياة البسيطة .

كانت الجماعة الأوريجانية على علاقة ممتازة مع البابا تيموثاوس الإسكندرى (٣٨١ــ٣٨٥ م) ، وبقيت هذه العلاقة حتى عام ٤٠٠ م مع خلفه القديس ثاوفيلس الذى سام أحدهم (ديسقورس) أسقفاً على هرموبوليس ، كما سام اثنين كاهنين . لقد طلب من الإخوة الطوال أن يستقروا معه فى الإسكندرية ليعاونوه على الأعمال الرعوية لكنهم فضلوا الحياة الرهبانية فى البرية .

حدث خلاف بين الأوريجانيين بنتريا ورهبان الاسقيط ، إذ قبل الأخيرون فى بساطتهم فكرة « تشبه الله بالانسان » ، حاسبين ان اللاهوت له شكل بشرى . فى البداية وقف القديس ثاوفيلس فى صف الأوريجانيين ، وفى عام ٣٩٩ م كتب رسالة فصحية دورية حملت هجوماً مسهباً ضد القائلين بتشبه اللاهوت بالشكل الإنسانى . وكان رد الفعل أن نزل أضداد الاوريجانيين من الإسقيط إلى الاسكندرية .

آلاف من الرهبان أحاطت بمسكن البابا وهم فى غضب شديد . لاطفهم بقوله : « إذ أراكم أنظر وجه الله » ؛ بهذه الإجابة الحكيمة حسبوه أنه قبل عقيدتهم الخاصة بتشبّه اللاهوت للشكل البشرى ، إذ قال « وجه الله » ؛ ومن ثمة ،عادوا إلى الإسقيط . لام الإخوة الطوال القديس ثاوفيلس ووصفوه بالجبن

وضعف الإرادة . صاروا يهاجمونه علانية خاصة عندما رفض طلبهم الخاص بقبول القديس اسيذورس فى الشركة . كان القديس اسيذورس كاهنا راهباً تفرغ لخدمة الفقراء والمرضى والغرباء . قيل إن امرأة غنية أعطته مبلغاً للإنفاق على المحتاجين وطلبت منه ألا يخبر البابا بذلك حتى لا يستخدمه فى بناء الكنائس . وإذ عرف البابا بالأمر دخل مع القديس فى نزاع انتهى بهروب الأخير إلى نتريا حيث أكرم الأوريجانيون استقباله بحفاوة عظيمة .

على أى الأحوال ذهب أحد الاوريجانيين إلى ثاوفيلس وتشفع لديه من أجل اسيذوروس ، لكن النقاش انتهى بسجن الأوريجانى . دخل إخوته السجن وهناك اعتصموا رافضين الخروج حتى يأتى البابا نفسه إليهم ويعتذر لهم . وقد حقق البابا رغبتهم وخرجوا من السجن .

فى الرسالة الفصحية التالية (٤٠٠ م)، هاجم البابا الأوريجانية كهرطقة ، عندئذ قام الأوريجانيون بإثارة متاعب كثيرة ضد البابا فى نتريا ، وعندما أرسل إليهم بعض الأساقفة لمناقشة الأمر اعتصموا فى الكنيسة ورفضوا الإلتقاء بهم . قام البابا بحرمان آمون وإخوته طوال القامة فى مجمع محلى ، وعندما قام بزيارة البرية. حاول بعض الرهبان قتلهم فهربوا فى مقبرة بينما حُرقت قلاليهم . وأخيراً تركوا مصر مع القديس يوحنا كاسيان والقديس اسيذورس وحوالى ثمانين راهباً[٩٢] ، (مات أوغريس عام ٣٩٩ قبل حدوث هذه العاصفة بوقت قليل). وذهبوا إلى فلسطين فى طريقهم نحو القسطنطينية ليشتكوا البابا فى القصر ويضعوا قضيتهم بين يدى البطريرك يوحنا ذهبى الفم .

بعث البابا ثاوفيلس رسالة مجمعية إلى ١٧ أسقفاً فى فلسطين و١٥ أسقفاً فى قبرص ، يكشف فيها التعاليم الأوريجانية[٩٣] . صار القديس جيروم من أشد المقاومين للأوريجانية بعد أن كان يقوم بترجمة أعمال أوريجانوس ، ممتدحاً إياها بكونه « أعظم معلم للكنيسة بعد الرسل » . شجع القديس جيروم أساقفة فلسطين لمعاونة البابا ثاوفيلس فى مقاومته للأوريجانيين . هذا وقد قام القديس إبيفانيوس أسقف سلاميس بذات الدور فى قبرص[٩٤] .

ذهب الأوريجانيون إلى القسطنطينية حيث استقبلهم القديس يوحنا ذهبى الفم ليصالحهم مع البابا . كما ذهب القديس أبيفانيوس إلى القسطنطينية حيث هاجم القديس ذهبى الفم لاستقباله هؤلاء الهراطقة . استغلت الإمبراطورة أفدوكسيا — وكانت تبغض ذهبى الفم — البابا ثاوفيلس كأداة لتحقيق رغبتها فى الانتقام . عقد مجمع السنديان عام ٤٠٣ م تحت رئاسة البابا ثاوفيلس لإدانة القديس ذهبى الفم حيث نفى إلى قومانا (توكات) وتنيح هناك فى ١٤ سبتمبر سنة ٤٠٧ م .

+ + +

٥ ـ هيراقلاس

هيراقلاس هو أحد تلاميذ العلامة أوريجانوس المشهورين ، درس الأفلاطونية الحديثة قبل معلمه أوريجانوس ، على يدى أمونيوس السقاس . فقد جاء فى إحدى مقتطفات من رسالة لأوريجين وردت فى يوسابيوس : [قابلت الأخير (هيراقلاس) فى بيت مدرس العلوم الفلسفية ، إذ كان قد درس لمدة خمسة أعوام قبل أن أبدأ أنا فى حضور هذه المحاضرات . فى ذلك الوقت كان هيراقلاس قد زهد الملابس العادية التى كان يلبسها قبلًا ، وارتدى زى الفلاسفة ، والذى مازال يلبسه حتى اليوم ، راجياً أن يستمر فى دراسة كتب اليونانيين قدر الاستطاعة[١]].

هيراقلاس الذى كرّس كل وقته للفلسفة كسبه أوريجين لينتسب لمدرسة الإسكندرية . بدأ كتلميذ لأوريجين ثم صار مساعداً له وأخيراً خلفاً له عندما هرب إلى فلسطين .

من الجانب الآخر ، إذ اكتشف القديس ديمتريوس إمكانيات هيراقلاس الروحية فى الكرازة وقدرته على تعليم الموعوظين وإرشاد المؤمنين ، سامه قساً فقمصاً ، وسمح له أن يعظ فى الكاتدرائية . جذب وثنيين كثيرين إلى المسيحية ، كما أظهر حباً فائقاً للمؤمنين . وفى عام ٢٢٤ م أختير خليفة للقديس ديمتريوس .

بابا الاسكندرية

تعتبر فترة باباويته ذات أهمية خاصة ، فقد احتمل شعبه الاضطهاد فكان يفتقد المدن والقرى فى أنحاء البلاد يسندهم . فى زياراته سام حوالى ٢٠ أسقفاً ليهتموا برعاية شعب الله ، وقد أراد الشعب مع الكهنة فى مصر ، الذين أحبوه جداً أن يميزوه عن بقية الأساقفة فدعوه بالقبطية « بابا » وهى تعنى « أب » . وهكذا صار أول مسئول كنسى فى العالم المسيحى يحمل هذا اللقب ، قبل أن يُستخدم فى روما[٢] .

البابا هيراقلاس وأوريجين

قيل إنه حث المعلم العظيم أوريجين أن يعود إلى الإسكندرية[٣] ، لكنه اعتذر بأن مدرسة الإسكندرية قد استقرت وأن مدرسة قيصرية تحتاج إلى رعايته[٤] .

مع يوليوس أفريقيانوس

استطاع بسيرته الفاضلة لا أن يجتذب إلى الإيمان بعض الوثنيين فى مصر فقط بل وأيضا الأجانب . زاره المؤرخ الشهير الرحالة يوليوس الذى كتب تاريخ العالم منذ الخليقة حتى عام ٢٢١ م ، آمن على يديه بالمسيحية[٥] .

٦ ـــ القديس ديونسيوس الإسكندرى

لقبه القديس أثناسيوس : « معلم الكنيسة الجامعة[1] » ، كما دُعى : « ديونسيوس الكبير » بسبب ما عاناه من ضيقات محتملًا ذلك فى شجاعة وثبات ، ولغيرته على الكنيسة لا على المستوى المحلى فحسب ، بل على مستوى الايبارشيات الأخرى أيضاً (خارج مصر) .

تحوله للمسيحية

وُلد بالإسكندرية قبل نهاية القرن الثانى (حوالى سنة ١٩٠ م) ، من أبوين وثنيين ، فصار يعبد الكواكب ، وكان طبيباً ناجحاً .

قادته قراءاته المستمرة إلى قبول الإيمان المسيحى ، فقد قيل إن امرأة مسيحية عجوزاً باعت له بعض أوراق بها رسائل القديس بولس ، وإذ قرأها أسرع إليها يطلب منها المزيد ، فقادته إلى الكنيسة وقدمته للكاهن . قبل ديونسيوس المسيحية ، والتحق بالمدرسة المسيحية . فى البداية صار أحد تلاميذ أوريجين ، وقد صار بعد ذلك خلفاً لهيراقلاس فى رئاسة المدرسة لمدة حوالى ١٦ عاما (٢٣١ـــ٢٤٦) .

يقول فى إحدى رسائله إن الله أعلن ذاته له خلال قراءاته المكثفة ، وقال له : [اقرأ كل ما يمكن أن تصل إليه يدك ، فإنك قادر أن تصحح كل شىء وتختبره ، فإن هذه العطية هى سبب إيمانك منذ البداية] . لقد قبل هذه الرؤيا ولم يكف عن القراءة حتى بالنسبة للكتب غير الأرثوذكسية ، وقد ساعده ذلك على مقاومة العدو فى عقر داره .

بابا الاسكندرية

فى عام ٢٤٧ م اختير القديس ديونسيوس بابا للاسكندرية ، حيث كانت رسالته صعبة ألا وهى الحفاظ على كنيسته وسط موجات مستمرة من الاضطهادات ، نذكر منها :

١ ــ فى عام ٢٥٠ بدأ اضطهاد داقيوس للكنيسة (بالنسبة لكنيسة الإسكندرية بدأ عام ٢٤٩ م) . بقى البابا فى داره أربعة أيام ينتظر بينما كان رجال الوالى يبحثون عنه فى كل موضع غير متوقعين أن يجدوه فى داره . أخيراً هرب ، فعرض نفسه ــ مثل القديس كبريانوس ــ للاتهام بالجبن . وقد اقتطف يوسابيوس رسالة له وجهها إلى أحد أساقفة الأقاليم يدعى جرمانيوس ، يدافع فيها عن نفسه ، قائلًا : [أتحدث كمن فى حضرة الله ، إنه يعلم إنى لا أكذب . إننى لم أهرب بدافع من نفسى ، أو بدون إرشاد إلهى . وحتى قبل هذا ، وفى نفس الساعة التى بدأ فيها اضطهاد دقيوس ، أرسل سابينيوس جندياً[٣] يبحث عنى ، وكنت فى الدار أربعة أيام أنتظر قدومه ، لكنه تجوّل يبحث فى كل موضع ــ فى الطرق والأنهار والحقول ــ إذ ظن أنى مختبىء أو أنى فى الطريق إليها ، فقد انطمست بصيرته ولم يجد الدار ، ولا تصوّر أنى أبقى فيها فى الوقت الذى فيه يجرى البحث عنى . فقط بعد أربعة أيام أمرنى الله أن أغادر الدار مع أتباعى وكثير من الإخوة . أما كون هذا قد تمّ بعناية الله فواضح مما حدث بعد ذلك (إذ ربما كنت نافعاً لبعض الأشخاص)[٤]].

أخيراً قبض الجند عليه مع من كانوا معه وأرسلوه إلى السجن ، لكن استطاع شماس يدعى تيموثاوس أن يفلت من يدى الجند ، التقى فى الطريق بمسيحى ذاهب إلى وليمة عرس ، وأخبره بسجن البابا . وإذ سمع الحاضرون انطلق الكل إلى السجن ، وصنعوا ضجيجاً عالياً ، فهرب الجند خائفين ، وتركوا الأبواب مفتوحة ، بينما كان البابا نائماً . لقد رفض مغادرة السجن حتى اضطر الشعب أن يحملوه من يديه ورجليه ويذهبوا به إلى داره .

٢ ــ فى عام ٢٥٧ م أثار الإمبراطور فاليريان اضطهاداً ، فنفى البابا إلى ليبيا . هناك لم يعقد اجتماعات فحسب وإنما بشر أيضا بين الوثنيين كما أجهد نفسه فى خدمة كنيسة الإسكندرية (بالرسائل) لكى يحفظ الخدمة هناك[٥] .

٣ ــ بعد عودته حدثت اضطرابات جديدة ، إذ هوجمت الإسكندرية من الجنوب بواسطة قبائل بربرية .

كذلك أعلن والى مصر بالاسكندرية « أميلينوس » نفسه إمبراطوراً ، فنشبت حرب أهلية انتهت بأسره بواسطة القائد الرومانى ثيؤدوتيوس الذى أرسل المتمرد مقيداً إلى روما . خلال هذه الحرب دُمرت المدينة ، وحلت بها مجاعة ، وانتشرت الأوبئة . تحدث البابا عن هذه الاضطرابات فى رسالته الفصحية الدورية عام ٢٦٣ م ، جاء فيها : [يبدو أن الوقت غير مناسب للعيد ... فنحن لا نرى إلا الدموع ، الكل ينوح . العويل يُسمع كل يوم بسبب كثرة الموتى ... لا توجد دار ليس فيها ميت ... بعد هذا حلت الحرب وحدثت المجاعة ، وقد قاسينا الأمرين سوياً مع الوثنيين ... لكننا فرحنا بسلام المسيح الذى وُهب لنا نحن وحدنا . كان أكثر الإخوة أسخياء جداً فى محبتهم الزائدة وعطفهم ، فازدادت رابطتهم مع بعضهم البعض . كانوا يفتقدون المرضى بغير خوف ، ويخدمونهم بصفة مستمرة ، يخدمونهم فى المسيح[٦]]. أما الوثنيون فكانون ينفرون من المرضى ، ويطرحونهم فى الشارع بين أموات وأحياء !

٤ ـــ فى نهاية كل اضطهاد كان البابا ديونسيوس يواجه مشكلة المرتدين . كان يضمهم ، بل وكان يمنع إعادة معمودية حتى الهراطقة أو المنشقين الراجعين (استقرت الكنيسة بعد ذلك على غير ذلك) .

٥ ـــ انشغل بالصراعات التى ثارت فى الكنيسة فى أيامه ليس فقط فى مصر ولكن فى أى موضع ، مثل هرطقات نيبوس أسقف ارسينوه بالفيوم ، وسابليوس أسقف بتولمايس (المدن الخمس الغربية) ، وبولس الشوموسطائى ، ونوفاتيوس الذى سيم على كرسى روما بطريقة غير شرعية .

وساطته بين كبريانوس واسطفانوس

كان القديس ديونسيوس رجلًا كنسياً هاماً ، له دوره حتى خارج نطاق ايبارشيته[٧] . كمثال توسط فى النزاع الحاد الذى قام بين كبريانوس أسقف قرطاجنة واسطفانوس أسقف روما ، وذلك بخصوص معمودية الهراطقة . فبالنسبة لكبريانوس المعمودية على يد الهراطقة والمنشقين باطلة ، لأنهم خارج الكنيسة ، ولا خلاص خارج الكنيسة ، إذ لا يستطيع أحد أن يتخذ الله أباً له ما لم تكن

الكنيسة هى أمه . التائب إذ يُعمد لا يُحسب بأن المعمودية قد أعيدت ، إنما يحسب كمن يتقبل المعمودية للمرة الأولى ، أما معموديته السابقة فباطلة كأن لم تكن . أما اسطفانوس فعُرف برأيه المخالف لذلك . أرسلت قرطاجنة مندوبين أساقفة لمقابلة أسقف روما فرفض الالتقاء بهم ، وبعث إليهم برسالة رسمية يحرم فيها كل من يخالف رأيه .

كان ديونسيوس يشارك اسطفانوس رأيه لكنه لم يشاركه عنفه ، فحاول التوسط[٨] . لقد قرر ألا يعيد معمودية الهراطقة والمنشقين لكنه لم يقطع علاقته بالكنائس التى تعيدها .

بعد نياحة اسطفانوس واجه ديونسيوس مشكلة ، وهى أن مؤمناً كان قد اعتمد بيد هراطقة منذ زمن بعيد وقد اعتاد أن يشترك فى التناول فى الكنيسة بعد توبته ، لكنه فى أعماقه كان يشعر بقلق . لم يجسر القديس ديونسيوس أن يعمده ، قائلاً له إن شركته فى التناول كافية . لكن تحت ضغط القلق الشديد والبكاء المستمر كتب إلى أخيه سكستوس أسقف روما يطلب رأيه[٩] ...

يليق بنا أن نعلم بأن الكنيسة فى الشرق والغرب استقرت بعد ذلك على رأى القديس كبريانوس ، أى اعتبار معمودية الهراطقة والمنشقين غير قائمة .

مع نيبوس أسقف أرسينوه

فى رحلته الرعوية لمدن إيبارشيته التقى البابا بنيبوس أسقف أرسينوه بالفيوم ، الذى استخدم سفر الرؤيا لتأكيد آرائه فى الملكوت الألفى المادى (بطريقة يهودية حرفية) ، رافضاً تفسير أوريجين الرمزى . عقد البابا مجمعاً محلياً فى أرسينوه وأوضح للأسقف نيبوس وأتباعه كيف أن ملكوت الله روحى ، وأن المؤمنين لا يترجون ملكوتاً زمنياً أو ملذات ، فاقتنعوا بكلماته المملوءة حباً .

فى الإسكندرية كتب البابا كتابين « عن المواعيد » ، جاء فيهما : [إنه ليسعدنى أن أصف ما رأيته من إخلاص أبنائى شعب أرسينوه ومحبتهم وذكائهم . فقد تبادلنا الآراء بصبر وجلد ، ولم ندع صغيرة أو كبيرة إلا وبحثناها باستفاضة . ومما يسرنى أن ابنائى حين وقفوا على ما هم فيه من خطأ أعلنوا ذلك جهاراً فى غير

خجل ولا تردد . وفى طليعة المعترفين بخطئهم كوراسيوس الكاهن الذى قدم مثلا حياً يدل على إخلاصه للحق . كما يسرنى ما بدا من أبنائى أهل ارسينوه إذ نسبوا نقْضى للبدعة الألفية إلى إخلاصى الأبوى(١٠)] . وبعد تفسيره الأصحاح العشرين من سفر الرؤيا أشار إلى مواعيد الله لشعبه ، ثم ذيل الرسالة بمدحه للأسقف نيبوس، قائلًا:[إننى أحب نيبوس وأمتدحه ،لأنه يسعى بكل جهده للوقوف على الحقيقة . أمتدحه أيضاً على التسابيح الروحية التى وضعها ليترنم بها شعبه على الدوام . غير أن محبتى للحق تفوق محبتى لنيبوس ، لذلك بادرت إلى دحض بدعته ...]

كتاباتـه

كتب الكثير لكن لم يبق إلا مقتطفات حفظت خلال كتابات يوسابيوس وأثناسيوس وغيرهما . يتجه فى كتاباته إلى الجانب العملى مع أسئلة خاصة بالتعاليم . رسائله تظهر أنه قام بدور إيجابى فى كل المناقشات العقيدية الرئيسية فى أيامه(١١) .

١ ــ عن الطبيعة

فى هذا العمل يفند المادية الأبيقورية فى شكل رسالة بعث بها إلى ابنه تيموثاوس . يكشف هذا العمل أن القديس كان ذا معرفة كبيرة بالفلسفة اليونانية ، وأنه كاتب قدير . لقد شهد بطريقة مقنعة عن نظام الكون وعناية الله ، رداً على الفكر المادى فى تفسير العالم(١٢) .

٢ ــ عن المواعيد

٣ ــ تفنيد ودفاع

جاء هذا العمل فى أربعة كتب موجهة إلى ديونسيوس أسقف روما ، إذ طلب الأخير منه أن يوضح له اعتقاده فى التعليم بالثالوث القدوس ، فأجابه بوضع هذا العمل .

فى خطابه يشرح العلاقة بين الآب والابن ، وهو الموضوع الرئيسى فى المجادلات الخاصة بالتثليث ، فيقول :

[بالتأكيد لم يكن هناك زمان فيه كان الله ليس بالآب (اى بدون الإبن) ...

بكون (الابن) بهاء النور الأبدى ، لذا فهو أزلى مطلق . حيث يوجد النور على الدوام ، يكون أيضا بهاؤه موجوداً على الدوام ... لذلك فإن البهاء الأبدى يشع أمامه ، واحد معه فى الوجود . كائن بلا بداية ، مولود على الدوام ، يشع أمامه دوماً ، وهو « الحكمة » القائل : « كنت كل يوم لذته فرحه دائما قدامه » أم ٨:٣٠ .

مادام الآب أبديا فالابن أيضاً أبدى ، هو نور من نور ...]

رسـائله

كثيراً ما استخدم يوسابيوس رسائل القديس ديونسيوس كمصدر هام لتاريخ حياته وللزمن الذى عاش فيه . كتب رسالة إلى نوفتيوس الذى سيم أسقفاً على روماً بطريقة غير شرعية ، يسأله فى هذه الرسالة الرقيقة أن يترك هذا المركز للأسقف الشرعى كرنيليوس ، موضحاً له أنه بهذا يحسب كمن استشهد ، فإن تجنب الانشقاق أكثر مجداً من الاستشهاد . [فإن (الاستشهاد) يكون لأجل نفس الشهيد وحده ، أما فى الأمر الآخر فيكون لأجل الكنيسة كلها[١٤]] .

بعث أيضاً برسالة إلى باسيليدس أسقف بانتوبوليس يجيبه فيها على أسئلة كثيرة بخصوص تحديد زمن الصوم الكبير والشروط الجسدية الخاصة بالاستعداد للتناول .

وجه أيضا رسالة إلى فابيوس أسقف أنطاكية عن المرتدين .

الرسالة الرابعة « عن الاستشهاد » وجهها إلى المعلم العظيم أوريجين[١٥] حيث كان مسجوناً فى صور .

أخيراً أشار يوسابيوس إلى الرسائل الفصحية التى كان القديس ديونسيوس يكتبها كل عام ليعلن عن موعد الفصح وبدء الصوم الكبير . أخذت هذه الرسائل شكل رسائل رعوية ، حيث يحث الشعب على حفظ الصوم الكبير ومناسبة القيامة بطريقة روحية . كما انتهزها فرصة لمناقشة بعض الأسئلة الكنسية المعاصرة .

٧ ــ ثيوغنستس « ثاؤغست »

بسبب موجات الاضطهاد التى تعرضت لها الكنيسة حدث لبس فى ترتيب بعض رؤساء المدرسة فى ذلك الحين (القرن الثالث). فالبعض يرى ان ثيؤغنستس خلف بيريوس ، والآخر يرى العكس .

ثيؤغنستس كاهن اسكندرى ولاهوتى ، نعرف عنه القليل جداً من خلال مقتطفات له وردت فى فوتيوس[١] وأثناسيوس وغريغوريوس أسقف نيصص .

جاء عمله العقيدى Hypotyposes فى سبعة كتب ، يحمل تعليم أوريجانوس ، ومع ذلك فقد استخدمه أثناسيوس فى صراعه ضد الأريوسية .

+ + +

٨ ـــ الأب بيريس

هو كاهن مثقف ، مفسر ممتاز لكلمة الله وكارز . يقول عنه يوسابيوس : [اشتهر بفقره الشديد مع غزارة علومه الفلسفية . كان عميقاً فى التأملات الروحية ، مجاهداً فى تفسير الروحيات والمباحثات العلنية فى الكنيسة[١]].

يدعوه القديس جيروم : « أوريجانوس الصغير » . وهو معلم الشهيد بمفيليوس المعجب بأوريجانوس والكاهن والمعلم اللاهوتى فى قيصرية فلسطين .

يقول فوتيوس : [يرى البعض أنه استشهد ، ويقول آخرون إنه قضى بقية حياته فى روما بعد فترة الاستشهاد[٢]]. ولكن الاحتمال الأعظم أن كلا الفريقين على صواب ، فقد احتمل العذابات دون أن يستشهد (فحسب كشهيد) وذلك أثناء اضطهاد دقلديانوس[٣] ، بعد ذلك ذهب إلى روما .

كتاباته

يقول القديس جيروم إن بيريوس نشر مقالات كثيرة فى مواضيع كثيرة ، كما أشار إلى مقال طويل له عن هوشع النبى . وقد قرأ فوتيوس لبيريوس عملاً يحوى ١٢ « لوغياً » ، أى حديثاً عن اللوغوس . ويشير فيليب الصيدى Philip Sidetes إلى ثلاثة أعمال لبيريوس :

« عن إنجيل لوقا » ،
« عن والدة الإله » ،
« حياة القديس بامفيليوس[٤] » .

+ + +

٩ ــ القديس ديديموس الضرير

وُلد القديس ديديموس حوالى عام ٣١٣ م ؛ وفقد بصره فى الرابعة من عمره ، فلم يتعلم القراءة فى مدرسة ، وإنما بسبب ولعه بالتعلّم اخترع الحروف البارزة بالنحت ليقرأها بإصبعه . بهذا سبق برايل بخمسة عشر قرناً فى استخدام الحروف البارزة للمكفوفين

حفظ الكتاب المقدس والتعاليم الكنسية عن ظهر قلب .

لم يتردد القديس أثناسيوس فى تسليمه مسئولية التعليم بإقامته مديراً للمدرسة[١] (٣٤٦ــ٣٩٨ م)٠ وقد تتلمذ على يديه القديسون غريغوريوس النزينزى وجيروم وروفينوس وبالاديوس . أشار إليه القديس جيروم مرارا كمعلم له[٢] ، ومدح تعليمه ، وشهد لأثره على اللاهوتيات فى أيامه فى الغرب كما فى الشرق[٣] . دعاه روفينوس[٤] : « نبياً » و « إنساناً رسولياً » .

نسكه

اجتذب معاصريه لا بعلمه فقط وإنما بنسكه أيضاً ، فغالباً ما عاش كمتوحد . زاره القديس أنبا أنطونيوس عدة مرات ؛ كما زاره القديس بالاديوس أربع مرات فى فترة عشر سنوات ، وروى عنه قصتين :

١ ــ مرة إذ طلب منى أن أصلى فى قلايته ولم ألبِّ طلبه ، روى لى هذه القصة : دخل أنطونيوس هذه القلاية للمرة الثالثة لزيارتى ، وإذ سألته أن يصلى ركع فى الحال ليصلى ولم يضطرنى إلى تكرار الطلب ، مقدماً لى مثلًا فى الطاعة . والآن إن كنت تود أن تقتفى آثاره كما يبدو عليك ، إذ تعيش فى خلوة بعيداً عن الأهل طالباً الفضيلة ، أبعد عنك روح المقاومة .

٢ ــ أخبرنى أيضاً الآتى : ذات يوم بينما كنت أفكر فى حياة الشقى يوليانوس الامبراطور ، وفى كونه مضطهداً ، اضطربت للغاية حتى إنى لم أذق خبزاً إلى ساعة متأخرة فى المساء ، وإذ بى أرى خيولًا بيضاء تجرى ، وكان الراكبون

عليها يهتفون قائلين : قولوا لديديموس إن يوليانوس قد مات اليوم الساعة السابعة ، قم وكل ، وأرسل إلى أثناسيوس الأسقف لكى يعرف هو أيضاً ما قد حدث » . واستطرد يقول : « وقد دونت الساعة والشهر والأسبوع واليوم ، واتضح لى أن ما قيل كان صحيحاً » .

كتاباته

١ ــ **أعماله التفسيرية** : يقول بالاديوس إنه فسر العهدين القديم والجديد كلمة كلمة . وجاء فى جيروم أنه وضع تعليقات على أسفار المزامير وأيوب وإشعياء وزكريا الخ ... وأشار كاسيدورس بأن له تعليقات على سفر الأمثال . ووجد فى البردى المكتشف سنة ١٩٤١ بطرة فى مصر مقتطفات مطولة لتفاسيره للتكوين وأيوب وزكريا .

« المقتطفات الضخمة الموجودة تجعلنا قادرين على التعرف على طريقة ديديموس الرمزية السرية فى التفسير ، والتى تؤكد اتباعه منهج أوريجانوس . أظهر اهتماماً خاصاً بالنقد الخاص بالنصوص مثل المعلم الإسكندرى (أوريجين) ، وقارن بين مخطوطات متنوعة للترجمة السبعينية ومما ورد فى السداسيات (لأوريجين) ، لكن جهاده فى التصميم على القراءة الدقيقة (لنصوص الكتاب) لم يمنعه عن استخدام التفسير الرمزى المتحرر . لقد اقتنع أن العهد القديم يحوى رسالة مسيحية هامة فى كل موضع ، وأن كل مزمور يشير إلى المسيح(٧)] .

وضع أيضاً تعليقات على بعض أسفار العهد الجديد خاصة إنجيل القديس متى وإنجيل القديس يوحنا وسفر الأعمال والرسالتين الى أهل كورنثوس والرسالة إلى أهل غلاطية والرسالة إلى أهل أفسس .

٢ ــ **عن الثالوث** : يقع هذا العمل فى ثلاثة كتب ، وضعها ما بين ٣٨١ ، ٣٩٢ م ، لا تزال موجودة وهى لا تحمل اتجاها أوريجانياً .

٣ ــ **عن الروح القدس** : الأصل اليونانى مفقود ، لكن الترجمة اللاتينية للقديس جيروم قائمة .

٤ ــ ضد أتباع مانى : يحوى هذا العمل ١٨ فصلًا صغيراً وهو موجود باليونانية .

٥ ــ أعمال أخرى : فى عمله « عن الثالوث » أشار ديديموس إلى عمل آخر بقلمه يُسمى : « الكلمة الأول ، كما أشار الى مقاله : « Sanctarum Volumen » فى عمله : « الروح القدس » ٥:١٢ .

جاء فى سقراط[٨] أن ديديموس خصص عملًا للدفاع عن كتاب أوريجانوس : « عن المبادىء » .

ويشير الأب يوحنا الدمشقى[٩] إلى عملين آخرين للقديس ديديموس هما : « عن الفلسفة » و « عن التجسد » .

كما حفظت له بعض الأعمال تحت أسماء آباء آخرين هى من قلمه[١٠] .

+ + +

١٠ ــ البابا بطرس خاتم الشداء والانقسام الميلاتى

« المحبة قوية كالموت » نش ٨:٦ . ليس الحب كلاماً ، ولا مجرد عاطفة ، إنما هو عمل وبذل من أجل المحبوب ! هكذا تعرّف أبونا الطوباوى بطرس على الله « الحب الحقيقى » فأحب الناس ، محتملًا لأجل خلاصهم ضيقات من الخارج وفى الداخل ! فقد جرحت نفسه بسبب اضطهاد أولاده ... وحمل الموت كل يوم من أجل الجاحدين ... وتمررت روحه فيه بسبب انشقاقات الكنيسة ... وتألم بسبب الهرطقات ...

أخيراً حين خرجت الاسكندرية كلها إلى السجن تفتدى باباها ، سلم حياته سراً طالباً من الله أن يكون دمه آخر قطرات تسفك فى مصر تحت الحكم الرومانى .

ابن الصلاة

إذ دخلت صوفيا زوجة الكاهن السكندرى ثيؤدوسيوس الكنيسة ، لتشترك فى الاحتفال بعيد الرسل ، بدأت تبكى ، فقد رأت كثيرين تجمهروا حول أيقونة الرسل يدهنون أطفالهم بزيت القنديل المدلى أمام الأيقونة(١) . رفعت صوفيا قلبها نحو الله وتنهدت فى اتضاع تطلب منه أن يهبها بصلوات رسله ابناً يخدمه كل أيام حياته . وفى تلك الليلة رأت فى نومها شخصين يلبسان ثياباً بيضاء ، يقولان لها : « لا تحزنى ! فقد سمع الرب صلاتك وهو يرزقك طفلًا يكون أباً لأمم كثيرة . يكون اسمه كصموئيل ، إذ هو ابن موعد أيضاً ! فمتى إستيقظتِ فى الصباح إذهبى إلى البابا ثاؤنا وأخبريه بالأمر ، وهو يصلى من أجلك ! » استيقظت السيدة فرحة متهللة وأخبرت زوجها بالرؤيا ، فأمرها أن تسرع إلى البابا . باركها البابا وقال لها : « ليكن لك ما أنبأتكِ به السماء ، فإن الله صادق وأمين فى مواعيده ، وهو قادر على كل شيء ، وأعماله عجيبة فى قديسيه » . وفى عيد الرسل التالى ، أنجبت صوفيا ابناً ، وأخبرت البابا الذى شارك والديه فرحهما ، قائلا : « دعوه بطرس لينال بركة صاحب العيد الذى وُلد فيه الطفل(٢) ».

فى حضن الكنيسة

بعد ثلاثة أعوام التقى الوالدان مع البابا ثأونا ، يحملان طفلهما الذى تربى فى دفء إيمان والديه العملى . لقد قالا للبابا[٣] : « هذا ابن صلاتك ، وثمرة بركاتك يا أبانا ». عندئذ أخذه البابا وعمده ثم باركه هو ووالديه .

هكذا نما بطرس فى القامة والنعمة ، ففى الخامسة من عمره أرسله والداه ليتعلم الدين والدراسات الكنسية ، وفى السابعة أُقيم أغنسطساً أى قارئاً ، وفى الثانية عشر رُسم شماساً يخدم الكنيسة بروح تقوىّ نسكىّ ، ملازماً الكنيسة نهاراً وليلاً ، منكباً على الدراسة ، سالكاً فى اتضاع ! فأحبته الكنيسة كلها وسيم قساً فى السادسة عشر من عمره[٤] .

قيل عنه[٥] أنه كثيرا ماكان يرى ابن الله يناول المؤمنين بيد البابا ثأونا ، وفى إحدى المرات شاهد يد الرب تمنع البابا عن تناول أحد الأشخاص غير التائبين .

لقد عرف القس بطرس كيف ينسحب من حين إلى آخر عن العمل الكهنوتى للدراسة فى الكتاب المقدس ، حتى تأهل أن يكون مديراً لمدرسة الإسكندرية اللاهوتية[٦] ، ونال لقب « المعلم البارع فى المسيحية[٧] ».

مع سابليوس الأسقف

كان سابليوس أسقفاً لبطولمايس[٨] ، وهى ميناء يتبع المدن الخمس الغربية « بانتوبوليس » الممتدة من طرابلس حتى حدود إقليم مريوط بمصر تجاه الصحراء الغربية .

ينسب لسابليوس بدعة Sabellianism التى تنكر وجود الثلاثة أقانيم للجوهر الإلهى الواحد . إنما هم فى نظر هذه البدعة مجرد سمات أطلقت على أدوار ثلاثة يقوم بها الله الواحد ، أى ثلاثة أشكال modes لإعلان الله الذاتى ، لهذا دعيت هذه البدعة بالـ modalism ، كما يدعى أصحاب هذه البدعة بمؤلمى الآب Patripassions ، إذ تقود بدعتهم لهذه النتيجة أن الآب قد تألم على الصليب تحت شكل الابن .

جاء سابليوس إلى الاسكندرية ، وطلب مقابلة البابا ليناقشه فى تعاليمه ، فأرسل إليه القس بطرس الذى استصغره فى عينيه ، ولكن ما أن بدأ الحديث حتى أفحمه بل وقيل أنه أصيب بمرض خطير ومات للحال ، وتبدد أتباعه[٩] .

معجزاته

فى أحد الأعياد فوجىء المؤمنون عند خروجهم من الكنيسة بعد الصلاة برجل مصاب بروح نجس يزأر كالأسد ويرشقهم بالحجارة ، فهرعوا إلى الكنيسة يخبرون البابا بالأمر . فطلب البابا من القس بطرس أن يُخرج منه الروح النجس ، فأحضر القس وعاءاً به ماء ، وطلب من البابا أن يرشم عليه علامة الصليب وينفخ فيه ، ثم أخذ الماء ورش به وجه الرجل المصاب ، قائلا : « باسم سيدى يسوع المسيح ابن الله الحىّ ، الذى أخرج لجيئون وأبرأ المرضى ، أخرج منه أيها الشيطان ، بصلوات أبى القديس ثاؤنا البطريرك ، ولا تعد إليه ». وللوقت خرج منه الروح الشرير وشُفى الرجل ، وصار هادئاً .

هذه إحدى المعجزات التى صنعها الله على يديه[١٠] .

على كرسى مارمرقس

إذ دنت ساعة رحيل البابا ثأونا اجتمع الكهنة مع الشعب حول راعيهم يبكونه ، قائلين : « تمضى هكذا يا أبانا وتتركنا يتامى !». ابتسم البابا فى دعة وأشار بيده إلى القس بطرس وهو يقول : « هذا أبوكم الذى يرعاكم من بعدى !...» إنى أخبركم أمراً عجيباً لا أستطيع اخفاءه . فاننى فى إحدى الليالى إذ كنت أصلى المزامير وأنا مستلقى بسبب المرض ، طلبت من الرب أن يرسل راعياً صالحاً لقطيعه ، يعمل حسب مشيئة الله وسط هذا الضيق[١١] ، فظهر لى الملك ، رب المجد وقال لى : « أيها البستانى للحديقة الروحية ، لا تخف على البستان ولا تقلق . سلمه إلى بطرس الكاهن يرويه ، وتعال أنت لتسترح مع آبائك ». عندئذ تطلع البابا إلى تلميذه بطرس وهو يقول له : « تشجع ، فإن الله معك يا ابنى ، أفلح البستان جيداً ». بكى بطرس وسجد أمام أبيه ، قائلًا : « إنى غير مستحق وليس لى قوة لعمل عظيم هكذا ». أجابه البابا : « لا تقاوم الرب فانه يهبك

القوة !». ثم ودّع البابا أولاده وأعطاهم السلام ، ورفع عينيه نحو السماء ليتمتم : « هوذا ملك المجد وملائكته القديسون !» ؛ وأغمض عينيه فى ٢ طوبة سنة ١٨ للشهداء (٢٨ ديسمبر ٣٠١ م) .

فى أول أمشير سنة ١٨ ش (٢٥ يناير ٣٠٢ م) ، اجتمع الاكليروس الاسكندرى وسائر الشعب وتمت سيامة القس بطرس البطريرك السابع عشر على الاسكندرية .

الانقسام الميلاتى

بدأ البابا بطرس خدمته وسط عاصفة الاضطهاد العنيفة التى أثارها الامبراطور دقلديانوس وأحد مساعديه مكسميانوس ، فقد حلت البلايا بالمؤمنين ، فقُتل كثيرون وهرب البعض إلى الصحارى ، وسُجن كثير من الأساقفة ، وتهدمت الكنائس ، لكن ما أثقل كاهل البابا بحق هو ذاك الانقسام الداخلى الذى خلقه مليتوس أسقف ليكوبوليس (أسيوط) بصعيد مصر .

سرّ هذا الانقسام لا يزال غامضاً ، فالمخطوطات المصرية ومؤرخو الأقباط وبعض مؤرخى الغرب اعتمدوا على القديس أثناسيوس الذى كتب فى هذا الموضوع بعد خمسين عاما[١٢] ، معلنا أن مليتوس قد بخر للأوثان فى عصر الاضطهاد إنقاذاً لحياته ، وإذ أوقع عليه البابا تأديبا قاوم . عقد البابا مجمعاً من الأساقفة بالاسكندرية أدان فيه مليتوس وجرده ، ولكن الأسقف لم يلجأ إلى مجمع آخر ولا حاول المثول أمام نفس الأساقفة ليبرر موقفه ، بل خلق انشقاقاً ووضع على عاتقه لا أن يسيم كهنة فحسب بل أساقفة أيضاً .

ومن الجانب الآخر رأى أتباع مليتوس أن تصرفاته هذه كانت ضرورة حتمية بسبب هروب البابا بطرس من موقعه وسجن الكثير من أساقفة الوجه البحرى[١٣] ...

أما غالبية المؤرخين فقد اعتمدوا على ما ورد فى كتابات القديس أبيفانيوس[١٤] ، وقرروا أنه خلال عام ٣٠٤ سُجن عدد من الأساقفة

المصريين ــــ من بينهم البابا ومليتوس ــــ إلى حين . وقد دبّ خلاف بينهما عن موقف الإخوة المرتدين ، فقد حمل مليتوس اتجاهاً عنيفاً ضدهم بينما كان البابا يحمل موقفاً لطيفاً منهم ؛ فقد أصرّ مليتوس على طردهم من الكنيسة بغير رجعة ، ناظراً إليهم كجند خونة أو جبناء فى مواجهة العدو(١٥) ، أما الكهنة فيلزم سيامة غيرهم يحلّون محلهم(١٦) . احتدم الصراع بينهم بمرارة ، وإذ شعر البابا أن مليتوس بهذا يغلق أبواب الخلاص فى وجه الكثيرين لم يستطع أن يتطلع إليه بل قيل أنه وضع « ستارة » فى وسط الحجرة داخل السجن بينهما . لقد قبل أن يخسر علاقته بالأسقف ولا يخسر خلاص الألوف إلى الأبد !. لكن انضم غالبية الأساقفة والرهبان إلى جانب مليتوس فى السجن إلى حين ، وامتنع الفريقان عن الحديث(١٧) .

على أى الأحوال أخذ مليتوس يرسم كهنة فى غير أبارشيته عام ٣٠٥ ، فأرسل إليه أربعة أساقفة من السجن الرسالة التالية قبل استشهادهم :

[من هيتيخوس وباخوميوس وثيؤدوسيوس وفيلاس إلى مليتوس المحبوب وشريكنا الخادم فى الرب ، التحية .

فى بساطة الذهن نخبركم أنه نمى إلى علمنا عنك إشاعات لا تُصدق . فقد أخبرنا زائرون عن بعض المحاولات ــــ لا بل والأعمال ــــ تصدر عنك ، غريبة عن النظام الإلهى والكنسى ، هذه التى لم نكن نود تصديقها من أجل ما فيها من تهور شديد وطياشة فقد شهد كثير من زوارنا الحاليين بصدق ما سمعناه ، ولم يترددوا عن تأكيد صحة هذه الوقائع فدهشنا جداً والتزمنا أن نكتب إليك .

إننا لا نستطيع أن نعبر عن مدى الضيق والحزن اللذين حلا بنا كجماعة وكأفراد عند سماعنا بالسيامات التى قمت بها فى إيبارشيات ليست تحت سلطانك .

على أى الأحوال ، إننا لم نتأخر عن توجيه هذا اللوم إليك فى إختصار ، فإنه يوجد قانون الآباء والأجداد ، الذى لا تجهله ، مؤسساً على أساس إلهى وكنسى هؤلاء إذ أرادوا أن يرضوا الله بغيرة نحو الأعمال الحسنة وضعوا أنه لا يجوز

للأسقف أن يقوم بالسيامة فى غير إبارشيته ، واستقروا على هذا .

هذا القانون الذى تسلمناه له حكمته وأهميته القصوى :

(١) لكى يكون سلوك المقدَّمين للسيامة وحياتهم بحق ممحصة بعناية فائقة .

(٢) منعاً من أى إرتباك أو اضطراب ، فكل منا لديه من الأعمال فى تدبير إبارشيته ما يكفيه ، عليه أن يسعى باجتهاد باحثاً بعناية فائقة واهتمام شديد ليجد خداماً مناسبين من بين الذين عاش وسطهم كل حياته ، وتدربوا على يديه .

أما أنت فلم تعطِ اعتباراً لهذه الأمور ، ولا تطلعت إلى المستقبل ، ولا إلى شريعة آبائنا الطوباويين التى تسلموها عن السيد المسيح بالتتابع ، ولا إلى كرامة أسقفنا العظيم وأبينا بطرس الذى فيه نضع جميعاً الرجاء الذى لنا فى الرب يسوع المسيح ، ولا ترفقت بنا من أجل حبسنا فى السجن وما حلَّ بنا من ضغوط وضيقات تاركين كل شىء دفعة واحدة .

ربما تقول : ما صنعته إنما لكى أحافظ على كثيرين بعد أن ارتد الكثير عن الإيمان ، وصارت القطعان فى عوز (الخدام) وهى متروكة بغير راعٍ .

بالتأكيد الأمر ليس كذلك ، وهم ليسوا فى عوز شديد :

(١) فإن كثيراً (من الرعاة) يفتقدونهم كزائرين (للابارشية) .

(٢) وإن وجد شىء من الإهمال نحوهم فكان يليق استخدام الطريق السليم بالاهتمام بواجبنا نحوهم . إنهم يعرفون أنهم ليسوا فى حاجة إلى خدام ، وهم لم يطلبوا ذلك . لقد عرفوا أننا نقوم بعملنا الذى يتجسم فى تقديم الإرشاد لهم . بهذا تكون الحجة مرفوضة ، إذ يبدو كل شىء فى وضعه المناسب ... وتعتبر كل الأمور تسير بأمانة حسنة .

لقد أصغيت بمبالغة لخداعات البعض وكلماتهم الباطلة ، وصنعت تعديات متمماً السيامات خلسة . فلو أن الذين معك قد ألزموك بحق ، وفى جهلهم أساؤا للنظام الكنسى فمن واجبك أنت أن تسلك حسب النظام وتكتب إلينا ، فيكون تصرفك لائقاً .

إن كان البعض قد حرضك لكى تصدقهم أكثر منّا (الأمر الذى لا نجهله إذ كثيرون يقدمون لزيارتنا ويخرجون) فإننا نقول لك إنه كان يجب عليك أن تستشير الأب الأول (بطرس) وتأخذ منه تصريحاً .

إن عدم مبالاتك بهذا كله ، تاركاً العنان لنفسك فى تكهنات كثيرة ، متجاهلًا كل اعتبار لنا ، فتقيم قادة للشعب ، حتى خلقت ـــ كما علمنا ـــ انقسامات بتصرفاتك التى لا مبرر لها ، ممارساً حق السيامات ، هذا كله أحزن الكثيرين . فانك لم تقتنع أن تؤجل مثل هذه التصرفات أو توقف تصميمك للحال عند سماعك لكلمات الرسول بولس النبى المطوَّب جدا . اللابس المسيح ، ورسولنا جميعاً ، إذ يكتب لابنه تيموثاوس المحبوب لديه للغاية ، قائلًا : « لا تضع يدك على أحد بالعجلة ، ولا تشترك فى خطايا الآخرين » ١ تى ٥:٢٢ . وهكذا يظهر قلقه عليه ، معطياً نفسه مثالًا ، وموضحاً له القانون الذى يلتزم به عند اختيار المرشحين للسيامة بكل حرص ودقة . تحدث معه هكذا متطلعاً إلى المستقبل البعيد . ونحن نكتب لك ذلك لكى تتأمل أن تلتزم بحدود القانون المملوء أماناً وسلاماً ![١٨]]

إذ تسلم مليتوس الرسالة لم يكتب لهم ولا اجتمع بهم فى السجن ولا التقى بالطوباوى بطرس ، بل دخل إلى الإسكندرية[١٩] . هناك اكتشف أريوس واسيذورس مطامعه فى الرئاسة على كنيسة الاسكندرية فأسرعا إليه ، وللحال رسم كاهنين أحدهما فى السجن والآخر فى المناجم[٢٠] ، وادّعى لنفسه العمل الأسقفى فى الكنيسة أثناء غيبة أسقفها الشرعى .

إذ سمع الطوباوى بطرس ذلك كتب إلى الشعب الإسكندرى الرسالة التالية :

[من بطرس إلى إخوته المحبوبين ، المتأسسين فى الإيمان بالله ، تحية .

لقد وُجدت تصرفات مليتوس ليست للمصلحة العامة بالمرة ، إذ لم يقتنع بالأساقفة القديسين والشهداء ، بل اقتحم إيبارشيتى مظهراً بذلك أنه يسحب الكهنة والموكلين بخدمة الفقراء عن طوعى ، مؤكداً رغبته فى الرآسة ، بسيامته كهنة فى السجن يكونون تابعين له .

إحذروا منه ، ولا تكن لكم معه شركة إلى أن ألتقى به فى صحبة بعض الحكماء المتزنين ونرى ما يصبو إليه . وداعاً !»[٢١] .]

واذ أسرع القديس بطرس بالعودة إلى الإسكندرية وقاوم مليتوس حدث تأزماً وانشقاقاً دام زماناً طويلاً ، حتى أيام القديس أثناسيوس .

وقد زاد لهيب الأزمة فى فترة الهدوء التى لحقت اعتزال دقلديانوس الحكم ، فقد أصدر البابا فى عيد القيامة عام ٣٠٦ أربعة عشر قانوناً تعالج موقف الجاحدين الراجعين ... فى رسالته الدورية التى تدعى بالرسالة القانونية ، وقد حملت ترفقاً بمصير الساقطين[٢٢] .

أما مليتوس فبالرغم من تجريده بواسطة مجمع إسكندرى إلا أنه استمر فى سيامته للكهنة والأساقفة[٢٣] . وقد وجد له عوناً بين المعترفين فى المناجم[٢٤] ، وإذ حكم عليه بالعمل فى المناجم اشتهر كمعترف .

بلغ عدد الأساقفة التابعين له عام ٣٢٥ م كقول البابا أثناسيوس[٢٥] ٢٨ أسقفاً ، أكن « ما كان لأتباع مليتوس أهمية تذكر سوى تأثيرهم كأساس ارتكزت عليه الأريوسية فى مراحلها الأولى وكموضع إقلاق لأثناسيوس[٢٦] »، فقد مثّلوا خطراً فى سندهم للأريوسيين ضد البابا أثناسيوس ، حيث لفقوا له عدة اتهامات عام ٣٣١ م بقصد تشويه سمعته .

عُرضت قضية هذا الانشقاق الميلاتى فى المجمع المسكونى الأول بنيقية عام ٣٢٥ م ، وقد تعرفنا على الحلول من خلال الرسالة التى وجهها المجمع الى أساقفة مصر وليبيا وبانتوبوليس (الخمس مدن الغربية). فقد تساهل المجمع مع مليتوس وقبلوه أسقفاً شرعياً فى حدود إيبارشيته على ألا يسيم أساقفة أو كهنة فيما بعد[٢٧]. أما الكهنة الذين سامهم فيعاد تثبيت سيامتهم من جديد ويعملوا تحت سلطان أسقف الإسكندرية . وفى حالة احتياج أسقفية ما إلى أسقف ، تعاد سيامة أحد الأساقفة الذين سامهم مليتوس . كما أمر المجمع ألّا يسام فى المستقبل أى أسقف بغير حضور ثلاثة أساقفة واشتراكهم فى السيامة[٢٨] .

مع أريوس

على ما يبدو أنه ليبى الموطن ، وُلد هناك حوالى عام ٢٧٠ م . أما ارتباطه بلوقيان الانطاكى بالالتقاء أو السماع له فهو موضع تساؤل ، لكنه اقتبس من تعاليمه ، كتابع له يحمل نغمات تعليمه ، معتبراً إياه أستاذاً له[٢٩] .

كان آريوس لاهوتياً متعلماً ، ناسكاً فى طبعه ... مع قدرة فائقة على الوعظ[٣٠] .

ففى أثناء أسقفية القديس بطرس ارتبط آريوس بمليتس إلى حين ، وبعد انفصاله عنه استطاع أن ينال الشموسية على يد الطوباوى بطرس[٣١] ، وأخيراً رُسم كاهناً على الكنيسة فى بوكاليا بالإسكندرية .

لاحظ البابا بطرس فى عظات آريوس أنه يكرر عبارات يُشتم منها إنكار لاهوت المسيح وتجاهل مساواته للآب فحاول أن يكشف له خطأه ، لكنه أبى أن ينصت إذ صارت له شعبية ! فاضطر البابا أن يعقد مجمعاً بالاسكندرية يحرمه ، لكن آريوس استمر فى نشر تعاليمه !

فى داخل السجن

القى القبض على القديس بطرس وأودع فى السجن ، ربما للسببين التاليين :

١ ــ ظهور أول مؤلفاته ضد الوثنية ، التى اعتبرها الإمبراطور تحدياً له شخصياً .

٢ ــ الشكوى التى قدمها سقراطيس ، أحد أشراف أنطاكية ، إلى الإمبراطور :

سقراط هذا ، صديق الشهيد أبادير[٣٣] أنكر الايمان وذبح للأصنام إرضاءً لدقلديانوس . لقد سألته زوجته التقية أن يسافر معها إلى الاسكندرية لتعميد ابنيهما فرفض قائلًا لها أنه لو سمع الامبراطور بالأمر لغضب جداً . للحال أخذت السيدة ابنيها وغلامين من حاشيتها وأبحرت إلى الاسكندرية . وفى الطريق ، بعد

يومين إذ هبت ريح عاصفة للغاية وخشيت أن يموت والدها بلا عماد ، بسطت يديها وحوّلت وجهها نحو الشرق تصلى ، قائلة :

[أيها الإله العالم بكل شىء قبل كونه ،
العارف أعماق قلبى ،
أنى لما خرجت لم أحب زوجى ولا مالى مثل ما أحببتك يا الله مخلصى ، حتى نفسى وأولادى !
وهوذا يبتلعنا اليّم ونموت فى اللجج !
من أجل اسمك القدوس أيها الرب إلهى ، ومخلص نفسى وجسدى ، أنظر برحمتك إلى ولدىّ اللذين صارا يتيمين ...
لا تدعهما يموتان بغير عماد ![٣٤]].

عندئذ جرحت ثديها الأيمن ورشمت جبهتيهما بدمها ، وغطستهما فى الماء وهى تقول : « أعمدك باسم الآب والابن والروح القدس » . ثم أخذتهما فى حضنها وهى تقول : « الآن إن كنت أموت مع ولدىّ فانى مطمئنة البال »... فنظر الله إلى ثبات إيمانها وهدّأ الريح ، وبلغت السفينة إلى الإسكندرية بعد ثلاثة أيام (يوم أحد التناصير) .

دخلت السيدة الكنيسة وعندما أمسك البابا بولديها وأراد تغطيسهما جمد الماء . عمّد البابا أطفالا آخرين وللمرة الثانية إذ أراد تعميد الولدين جمد أيضا الماء . وفى المرة الثالثة سألها البابا عن أمرها فروت له ما حدث معها . عندئذ سبح الله قائلًا : « ليتشدد قلبكِ يا إبنتى ؛ لا تخافى فإن الرب معك . ففى الوقت الذى فيه جرحتى ثديك ودهنت ابنيك بالدم فى إيمان ، فإن الله نفسه ، الكلمة المتجسد الذى طُعن جنبه بالحربة فاخرج دماً وماء ، قد صلّب على ولديك بيده الإلهية . وهو الذى عمّدهما بنفسه عندما عمدت ولديك فى البحر » .

صلى البابا على الولدين ودهنهما بسرّ الميرون ... ووضع ميمراً فى هذا الشأن يقول فيه : « الله يترآف على الناس » .

ناول البابا الولدين وأبقاهما مع أمهما بالاسكندرية حتى عيد القيامة ، ثم رجعوا إلى بلدهم ثانية .

أخبر سقراط الامبراطور بالأمر متهماً إياها بالزنا ، فاستدعاها الامبراطور وأمر أن تُشد يداها إلى الخلف ويوضع ولداها على بطنها ويحرق الثلاثة بالنار . أما هى فحوّلت وجهها نحو الشرق وأسلم الثلاثة نفوسهم ونالوا إكليل الاستشهاد .

بعد ذلك أمر الإمبراطور والى الاسكندرية أن يلقى القبض على البابا الذى عمّد الولدين ، لكن البابا كان يتجول خارج الاسكندرية يسند أولاده ... وأخيراً أُلقى القبض عليه ، وأودع فى السجن عام ٣١١ م .

مساعى آريوس

أدرك أريوس أن القديس بطرس يستشهد ، فأسرع يبذل كل جهده لنوال الحِلّ منه حتى يقدر أن يعتلى كرسيه ، فأرسل جماعة من الأكابر يشفعون فيه لدى البابا المسجون ، لكن البابا قال لهم : « ليكن آريوس محروماً من الكنيسة ومن مجد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح إبن الله الحىّ ، الآن وإلى الابد !.»

رؤيتــه

أخذ البابا بطرس تلميذيه الكاهنين أرشلاوس والكسندروس على انفراد وقال لهما :

[ليت الرب ، إله السماء يعيننى لأتمم شهادتى على اسمه . وأنت يا أرشلاوس فستأتى بعدى على هذا الكرسى ، والكسندروس يكون من بعدك .

لا تقولا إنى ظالم بسبب مسلكى مع آريوس فانى لم أحرمه بإرادتى الخاصة ، بل السيد المسيح نفسه هو الذى حرمه .

فإنه فى الليلة الماضية بعد أن قمت بالصلاة ونمت رأيت كأنى أصلى فى قلايتى وفجأة دخل شاب إلى القلاية ، وكان وجهه يضىء كالشمس أضاء الدار كله . كان مرتدياً ثوباً أبيض لكن كان مُمزقاً فى المنتصف وقد أمسك بيديه جانبى الثوب .

انتابتنى الدهشة ، وصرخت : « من الذى شق لباسك يا سيدى ؟ ». أجابنى : « أريوس هو الذى مزقه ، فإياك أن تقبله أو يكون لك معه شركة . واليوم سيأتيك قوم يسألونك فيه ، فلا يرض قلبك عليه ، ولا تحله ، بل زده حرماناً . أقول هذا لك ولتلميذيك أرشلاوس والكسندروس اللذين يجلسان على الكرسى من بعدك أوصهما ألا يقبلاه ... »

إلى هنا انتهت الرؤيا حيث أخبرنى انى أنال إكليل الشهادة . لقد رأيتما كيف عشت زمانى كله بينكم وديعاً متواضعاً ، كما تعلمان ما نالنى من تجارب حلّت بى من الوثنيين وتعرفان أيضا كيف كنت أهرب من موضع إلى موضع ، كيف مضيت إلى الجزر وفينيقية ومدن سوريا وفلسطين ولم أفتر عن الكتابة إليكم سراً وجهراً ، ولم أغفل عن القطيع الذى أوتمنت عليه نهاراً وليلًا ، وكان قلبى يتألم لهم .

أنتما تعرفان أيضا أنى لم أترك الاهتمام بالأساقفة فيلاس وهوزيكيوس وباخوميوس وثيودوسيوس الذين سجنوا من أجل إيمانهم بالسيد المسيح واستحقوا نعمة الله (الاستشهاد). فقد كنت أوالى الكتابة إليهم من بلاد فارس وأذكرهم فى رسائلى لئلا يُجرى عليهم شىء كما حدث مع الكهنة المسجونين معهم والستمائة والستين نفساً(٣٦) ... ولما سمعت أنهم استشهدوا مجّدت السيد المسيح وقدمت إليه الشكر على ما وهبهم من قوة الإيمان والثبات فى مسيحيتهم ... وما أعده لهم من أكاليل المجد والغلبة الذى توّج بها رؤوسهم . وانى أساله أن يحسبنى معهم ...

لقد علمتما يا أرشيلاوس والكسندروس الشرور التى لحقتنى من مليتوس أسقف ليكوبوليس الذى قسّم الكنيسة التى اشتراها السيد المسيح بدمه الذكى وجسده الطاهر ووضع نفسه فدية عنها ...

منذ زمان والولاة قد تآمروا علىّ كل يوم بالقتل كما تعلمان ، وهم مزمعون أن يتمموا ما قد أُمروا به ، فأنا لا أخاف على نفسى بل أشتهى أن أكمل سعيى الذى قدمنى الإله الحىّ إليه ، وليعيننى الله أن أتمم الخدمة التى قبلتها منه .

بعد اليوم لا تعودان ترياننى فى الجسد ، وأنا أشهد أنى قد أظهرت لكما كل شىء وأوضحت كل الأمور ، وأوصيتكما بكل ما يجب عمله وأصبحت بريئاً من

كل إثم فاحفظا القطيع الذى أقامكما الروح القدس عليه، وأحرسا كنيسة الله التى اقتناها بدمه .

وأنى أعلم أنه بعد مفارقتى سيقوم البعض ويتكلمون بتجاديف ويضلون ويقسمون الكنيسة كما فعل مليتس . إذن اسهرا فإن شدائد بلا حصر ستلحق بكما . فقد علمتما بما لحق بالأب ثاونا الذى قام بتربيتى ... وما صادفه من الشرور ... وانى أرجو أن أنال مثل النعمة التى اقتناها بحسن أعماله ، وكذا مثل نعمة ديونسيوس الذى كان مختفياً من مكان إلى آخر من أجل سابليوس الهرطوقى . وماذا أقول من أجل ياروكلاس وديمتريوس الكرّام المغبوطين ، وما لقياه من الشغب من أورجين والذين كانوا معه ،... لكن نعمة الله كانت مع هؤلاء جميعا رافقتهم وحفظتهم .

والآن أسلمكما لله بكلمة النعمة وهو القادر أن يحفظكما ويحفظ قطيعه .[٣٧]]

ولما قال هذا جثا على ركبتيه وصلى وسجد مع أرشيلاوس والكسندروس وشكر الله ، ثم ضمهما إلى صدره معانقاً إياهما يقبّلهما قبلة الوداع . أما هما فكانا يقبّلان يديه ويودعانه بالبكاء خاصة من أجل قوله إنهما لا يريان وجهه بالجسد بعد هذا اليوم .

عاد البابا إلى زائريه فى السجن ووقف معهم يسندهم ويصلى من أجلهم ثم باركهم وصرفهم معطيا إياهم السلام[٣٨] .

حب مشترك

إذ علم شعب الاسكندرية بسجن باباهم المحبوب تجمهر الكل حول السجن يريدون إنقاذه . مصممين أن يوقفوا قتله ولو مات الجميع . لهذا اضطر القائد أن يؤجل تنفيذ الحكم بالقتل إلى اليوم التالى خشية أن تحدث ثورة يضيع فيها الكثيرون .

لقد ظن القائد أن المتجمهرين سينصرفون عندما يحلّ الليل ، لكن خطته باءت بالفشل فقد بقى الكل ساهرين ... ولم يجد القائد حلًّا !

أدرك البابا احتكاكاً لابد أن يحدث فى الصباح بسببه ، وإذ لم يرد أن يُصاب أحد من شعبه بسوء استدعى أحد الشيوخ الموثوق فيهم وطلب منه أن يذهب إلى الوالى يبلغه الرسالة التالية : أن يدبر ارسال البعض إلى السجن ليلا من جهة الجنوب عند أسفل الحائط ، وسوف يقرع لهم البابا من الداخل ، فينقبوا الحائط ويخرج إليهم لينفوذا فيه الأوامر الصادرة إليهم .

نفذت الخطة بكل دقة ، وأسلم البابا نفسه بين أيديهم فى هدوء ، مقتفياً آثار سيده الذى أسلم حياته من أجل قطيعه .

لقد خرج يقول : [خير لى أن أسلم نفسى فدية عن شعبى ولا يُمس أحد بسوء !]

عند قبر مارمرقس

سألهم البابا إن كانوا يسمحون له بزيارة قبر القديس مرقس لينال بركته ... وهناك سقط على ركبتيه ، وبدأ يحدث سلفه :

[يا أبى الانجيلى ، المبشر بيسوع المسيح إبن الله الوحيد ، والشاهد لآلامه ...

كنت أول شهيد وأسقف على هذا الكرسى . فقد اختارك السيد المسيح القدوس الحقيقى لتبشر باسمه فى هذه المدينة ، فى كورة مصر وكل البلاد المحيطة . وكنت ساهراً فى الخدمة التى نلتها ، وأخذت اكليل الاستشهاد . لذلك استحققت أن ترى الله الكلمة ، المخلص يسوع المسيح .

أنت اخترت أنيانوس الطوباوى لأنه كان مستحقاً ، ومن بعده ميليوس ومن كان بعدهما ثم الآباء ديمتريوس وياركلاس وديونسيوس ومكسيموس والطوباوى ثاؤنا أبى الذى قام بتربيتى حتى بلغت خدمة هذا الكرسى من بعده . أنا الخاطى ،غير المستحق لهذه الكرامة ، لكن بكثرة مراحم المسيح نلت ذلك .

إشفع فىّ أن أكون شهيداً بالحقيقة ، وأستحق أن أشترك فى صليب المسيح وقيامته ، ويجعل رائحة الإيمان تفوح فىّ ! ويكون بسفك دمى على اسمه القدوس بخوراً طيباً له .

أسألك الصلاة من أجلى لكى لا أكون بقلبين ولا نيّتين ، وليقوينى الرب حتى أفارق هذا العالم !

الآن ، أستودعك القطيع الذى تسلمته بالتتابع ، والذى تسلمته أنت من يدىّ الله والمخلص مباشرة .

لتكن معى ومع كل أولادك الذين وهبك المسيح إياهم . آمين[٤٠] .]

بعد هذا الحديث الحبى مع أبيه القديس مرقس ، وقف البابا بطرس وبسط يديه نحو السماء وهو يقول : [يا إبن الله الحىّ ، يسوع المسيح ، كلمة الآب ، أسألك أن تضع نهاية للاضطهاد الواقع على شعبك ليت سفك دمى أنا عبدك يكون خاتمة هذا الاضطهاد الحالّ بقطيعك الناطق . آمين[٤١] .]

كان بالقرب من القبر عذراء ساهرة تصلى فى نفس المنطقة ... سمعت صوتاً يقول : « بطرس آخر شهداء هذا الاضطهاد » .

إذ انتهى القديس من صلاته قبّل القبر وصعد إلى الولاة ، الذين ذهلوا لما رأوه ، ولم يتجاسروا حتى أن يتحدثوا معه ، فقد كان وجهه كوجه ملاك ، ولم يجسر واحد من الجنود الخمس أن يقتله .

توسل البابا أن يعجلوا بالأمر قبل الصباح حتى لا يحدث شغب من الشعب . فقرروا أن يجعلوا خمس قطع ذهبية من كل واحد منهم للجندى الذى يضرب عنقه . أخيرا تجاسر واحد منهم وضرب عنقه بالسيف ، فنال البابا إكليل الشهادة فى ٢٩ هاتور سنة ٢٨ ش الموافق ٢٥ نومبر ٣١١ م .

على عرش مارمرقس

فى الـ[illegible]ـباح سرى الخبر بين شعب الاسكندرية ، فأسرع الكل إلى حيث استشهد [illegible] ، وهناك لفّه الكهنة فى قطعة من الجلد كانت تحت جسده ، وبالكاد [illegible] الشعب من الاقتراب إليه إذ أراد كل واحد أن يحصل على قطعة من ثيابه للتبرك بها .

فى الكنيسة البسوه ثياب التقديس وأصروا أن يجلّسوه على كرسى مارمرقس الذى لم يجلس عليه قط فى حياته ، اتضاعاً منه مكتفياً بالجلوس على درجات

السلم[٤٢] . فقد جاء عنه أن الشعب كان يتذمر على البابا بسبب هذا السلوك . وفى أحد الأعياد ، إذ صعد على السلم يعطى السلام صاح الشعب : « إجلس على العرش الذى رُسمت عليه ياريس الأساقفة !». عندئذ توسل إليه الكهنة أن يستجيب لطلبة شعبه ، أما هو فصمت حتى عادت الكنيسة إلى هدوءها ، وجلس على سلم الكرسى . وبعد الخدمة انفرد بكهنته ، وقال لهم : « لماذا تحزنوننى أنتم أيضا مع الشعب ؟!... فإننى كلما أصعد للجلوس أرى قوة شبيهةً بالنور حـالّة فى العرش ، وبالرغم من أن هذه القوة تسندنى وتفرحنى لكن عظامى تضطرب جداً ، ولا أستطيع أن أقول للشعب شيء من هذا ...»

دفنــه

بعد أن قبّله الجميع ثارت مشكلة حول دفنه ، فقد أراد البعض أن يدفن فى كنيسة ثاؤناس حيث تربى البابا بطرس ، والبعض فضل أن يدفن فى موضع القديس مرقس الرسول حيث استشهد البابا بطرس . وأخيراً إذ كان البابا قد بنى لنفسه مقبرة فى موضع يقال له « لوكابتس » على شاطىء البحر ، فأخذوا جسده فى قارب إلى هناك ودفنوه باكرام عظيم ... وظهر من قبره فيما بعد آيات وعجائب كثيرة . كما بنيت عليه كنيسة فى عهد الإمبراطور قسطنطين بقيت الى أيام دخول العرب مصر .

الاحتفال بعيده

يذكر سوزومين أحد مؤرخى الكنيسة الأولى أن الاسكندريين كانوا يحتفلون بعيد القديس بطرس سنوياً ، حيث يقوم أسقف الاسكندرية بخدمة القداس الإلهى « ليتورجيا الإفخارستيا » يوم ٢٩ هاتور ، يعقبه وجبة أغابى « وليمة محبة » على شاطىء البحر .

بركة صلواته فلتكن معنا آمين .

+ + +

كتاباتـه

لم يذكر يوسابيوس المؤرخ شيئاً عن كتابات القديس بطرس ، غالباً لأن اتجاهاته ضد الأوريجانية . للأسف لم يصلنا إلا بعض فقرات من مقالاته اللاهوتية ورسائله .

أهم كتاباته

١ ـــ **الرسالة الفصحية** : تعتبر من أهم أعماله ، أصدرها بعد الاضطهاد الذى أُثير عام ٣٠٢ م . وقد عُرفت بـ« الرسالة الخاصة بالقوانين » ، إذ تحوى أربعة عشر قانوناً خاصة بتأديب الإخوة الجاحدين للإيمان الراجعين بالتوبة .

افتتاحية القانون الأول هى « إذ يحل عيد الفصح الرابع من الاضطهاد ...» تشير الى أن الرسالة قد وضعت عام ٣٠٦ م ، وأنها رسالة فصحية ، أى خاصة بعيد القيامة .

٢ ـــ **الرسالة إلى الإسكندريين** : فى مناقشتنا للإنقسام الميلاتى أشرنا إلى رسالة وجهها القديس إلى الاسكندريين يحذرهم ضد ميليتس .

٣ ـــ **عن اللآهوت** : حملت أعمال مجمع أفسس المسكونى (عام ٤٣١) ثلاثة مقتطفات من أعمال القديس « عن اللاهوت » . هذه المقتطفات كتبت دفاعا عن لاهوت السيد المسيح ؛ نذكر منها : [إذ بالحقيقة « النعمة والحق بيسوع المسيح صارا » يو ١:١٧ ، حيث أننا « بالنعمة مخلّصون » ، كقول الرسول « ليس منكم ، وليس من أعمال كيلا يفتخر أحد » أف ٢:٨ ، ٩ إنما هى إرادة الله أن « الكلمة صار جسدا » يو ١:١٤ « ووجد فى الهيئة كإنسان » فى ٢:٧ ، لكنه لم يوجد بغير لاهوته قط .

إن كان الغنى قد صار فقيراً ، لكنه لم ينفصل قط عن قوته ومجده ، إنما صنع هذا لكى يموت من أجلنا نحن الخطاة ، يموت البار عن الأثمة ، لكى يحضرنا أمام الله خلال موته بالجسد وهو محيىّ بالروح ...

هذا ما يؤكده الانجيلى أيضا بقوله « الكلمة صار جسدا ، وحلّ بيننا ». فإن هذا قد حدث حقاً منذ أعطى الملاك السلام للعذراء قائلا : « السلام لك أيتها الممتلئة نعمة . الرب معك ». فعندما قال لها الملاك جبرائيل « الرب معك » قصد « الله الكلمة معك » ، محققاً أن الله قد حُبل به فى أحشائها ليصير جسداً ؛ كما هو مكتوب « الروح القدس يحلّ عليك وقوة العلى تظللك والمولود منك قدوس يدعى ابن الله » لوقا ١:٣٥ .

الله الكلمة صار جسداً فى أحشاء البتول بإرادته الخاصة بغير زرع بشر ، إنه غير محتاج إلى وجود رجل أو زرعه ؛ لأن قوة الله التى ظللت البتول والروح القدس الذى حلّ عليها يقدران أن يعملا فيها بأكثر قوة من زرع البشر .]

٤ ــ رسالة فصحية أخرى : فى بعض المخطوطات الخاصة بمقال القديس بطرس « عن الندامة » والتى تحوى الأربعة عشر قانوناً السابق الإشارة إليها ، وقد اختتمت بالعنوان التالى « عن مقال عن البصخة لنفس المؤلف ». هذا الختام يعالج موضوع الصوم فى اليوم الرابع واليوم السادس من الأسبوع . يحتمل أن يكون هذا الاقتباس عن أحد رسائله الفصحية .

يقول Quasten « إننا نعرف عن أحد مقتطفات من تاريخ حياة أحد الاسكندريين أن بطرس قدم مقالا عن « عيد القيامة » لشخص يدعى تريسينيوس . يحتمل أن تكون رسالة خاصة بعيد القيامة وجهها إلى أسقف مصرى يحمل هذا الاسم ».

عن مجيء مخلصنا : اقتبس ليونيتوس البيزنطى جزءاً من عمل القديس بطرس « عن مجيء مخلصنا »[٤٥] ...

+ ... قال ليهوذا « أبقبلة تسلم ابن الانسان ؟!» لوقا ٢٢:٤٨

هذه الأمور وما على شبهها وكل العلامات التى أظهرها يسوع والمعجزات التى صنعها تبرهن أنه « الإله المتجسد ».

هكذا كان بالطبيعة هو الله ، وبالطبيعة هو إنسان .

عن النفس : العنوان الذى أعطى لعمله « عن النفس » فى الحقيقة مجرد حدس أجمع عليه الكل . لدينا ثلاثة مقتطفات ، منها إثنان اقتبسهما ليونيتوس البيزنطى بكونهما كتابات القديس الموجهة ضد التعاليم الأوريجانية الخاصة بوجود النفس السابقة للجسد ، وأنها تحبس فيه بسبب خطية سبق أن ارتكبتها .

مقتطف ١ : [... بحسب كلمة الخلاص ، الذى خلق الذى بالخارج (الجسد) هو أيضا الذى أوجد الذى بالداخل (النفس).

بالتأكيد بعملية واحدة ، وفى وقت واحد خلق الإثنين فى نفس اليوم عندما قال : « لنخلق الا نسان على صورتنا كشبهنا » تك ١:٢٦ . من الواضح أن الانسان لم يُخلق باتحاد الجسد مع كائن آخر . لأنه إن كانت الأرض عند أمر الخالق أوجدت الحيوانات الأخرى تحمل الحياة كم بالأكثر التراب الذى يأخذه الله من الأرض ليحمل طاقة حيوية خلال إرادة الله ومن عمله ؟!]

مقتطف ٢ : [... يا لشقاوتى ! فانى أنسى أن الله ينظر الى الذهن ويسمع صوت النفس . انى أعود الى الخطية بارادتى قائلا لنفسى : « الله رحوم وهو يحتملك » . إنى دائما أخطىء مادمت غير مُجرب ، محتقرا لطف الله ومستهينا بطول أناته .]

٥ ــ عن القيامة من الأموات : يوجد سبعة مقتطفات بالسريانية من عمله : « عن القيامة من الأموات ». هذا العمل أيضا يُحتمل أن يكون دحضاً لتعاليم أوريجانوس ، إذ يركز على أن الجسد فى القيامة هو بعينه الجسد الحالى .

ملاحظة :

بخصوص الكتابات الخاصة باستشهاد القديس توجد عدة مخطوطات بالقبطية واليونانية واللاتينية والسريانية ...

١١ ـــ القديس أثناسيوس والأريوسية

افتتح القديس غريغوريوس أسقف نزينزا مرثاته لهذا القديس بهذه الكلمات : « عندما أمدح أثناسيوس ، أكون ممتدحاً الفضيلة ؛ فإننى أذكر كل فضيلة عندما أُشير إلى ذاك الذى اقتنى كل الفضائل . كان عمود الكنيسة الحقيقى . حياته وسلوكه يمثلان نظاما للأساقفة ، وتعليمه يمثل قانون الإيمان الأرثوذكسى(١) ». دعاه القديس أبيفانيوس : « أبا الأرثوذكسية ».

صبوته

ولد القديس أثناسيوس بصعيد مصر حوالى عام ٢٩٧ م ، لا نعرف اسمى والديه ، إنما كانا مسيحيين(٣) ، تقيين . عاشا بالصعيد ثم رحلا إلى الاسكندرية واستقرا هناك .

يروى لنا روفينوس(٤) تقليداً جاء فيه أن أثناسيوس جذب انتباه القديس البابا الاسكندرى الكسندروس ، بينما كان هوه صبى يلعب على الشاطىء مع الصبيان وكأنه يمارس المعمودية بوقار وتكريم . سرّ البابا بأثناسيوس الذى كان يقوم بدور الأسقف أثناء لعبه ، فاستدعى والدته ونصحها أن تهتم بتعليم ابنها ، أما هى فبدورها سألته أن يعتنى به إن كان يقبله كتلميذ له .

تمثل أثناسيوس بالبابا فى فضائله باجتهاد وتشرَّب بتقواه وغيرته المقدسة . وفى عام ٣١٢ م أقامه قارئاً ، وفى عام ٣١٨ سامه شماساً وعينه سكرتيراً له .

روح الشهادة والنسك

بجانب تلمذته للقديس ألكسندروس وُجد عاملان كان لهما كبير الأثر على حياته ، هما :

١ ـــ عاش فى فترة الاضطهاد العنيف (٣٠٣ــ٣١١ م) حيث كان فى السابعة من عمره حتى الخامسة عشرة ، وقد عرف كثيرين من شهداء الإسكندرية ومعترفيها ، تعلم منهم الإيمان الأرثوذكسى والحب الشديد للكتاب

المقدس . حقاً لم يدخل معهم حلبة الاستشهاد لكن قلبه كان ملتهباً بالحب الإلهى ، يواجه كل صراع من أجل المسيح .

٢ — إذ سمع عن القديس أنطونيوس المتوحد أسرع إلى البرية وعاش هناك حوالى ثلاث سنوات يمارس الحياة النسكية البارة والشركة العميقة مع الله . لقد دبرت له العناية الإلهية هذه العلاقة الوثيقة مع القديس أنطونيوس ، حتى لا يشعر فى نفيه المتكرر بالعزلة بل بالحرى يحسبها فرصة حسنة ليمارس شيئاً من الوحدة ، ليصلى من أجل شعبه ويكتب إليهم . لقد وجد نفسه ملتزماً أن يسجل تاريخ القديس أنبا أنطونيوس ويقوم بالحديث عن الرهبنة أينما وجد .

فى المجمع المسكونى بنيقية (٣٢٥ م)

إذ صحب الشماس أثناسيوس البابا فى المجمع المسكونى الأول بنيقية عام ٣٢٥ م ، برز بغيرته وقدرته على مقاومة الأريوسية . لقد وضع قانون الإيمان الذى تردده كل الكنائس اليوم . وإذ انتهى المجمع تركه يصحبه إعجاب ٣١٨ أسقفاً اجتمعوا هناك كما تصحبه كراهية الجانب الهرطوقى الذى أثار ضده عواصف كثيرة فى حياته .

كتب عنه جون هنرى نيومان : [هذا الرجل الفائق ... هو أداة رئيسية بعد الرسل ، سلمت الحقائق المسيحية القدسية وأمّنت بالكلمة(٥)]. كما قالت ليديا كيسيش : [لو لم يقف أثناسيوس من أجل إيماننا ربما ما كانت الكنيسة قد صارت إلى ما هى عليه اليوم(٦)].

البابا أثناسيوس

فى عام ٣٢٨ م تنيح البابا ألكسندروس ، فانتخب الكهنة والشعب أثناسيوس ليجلس على كرسى الإسكندرية . هرب إلى البرية حاسباً نفسه غير أهل لهذه الخدمة ، غير أنهم بحثوا عنه فوجدوه مختفياً عند مسكن معلمه « أنبا أنطونيوس » .

سام فرمنتيوس كأول أسقف على إثيوبيا باسم « أبا سلامة الأول » ، وذلك عام ٣٣٠ م .

لقد دامت رئاسته ٤٦ عاماً ، قضى منها أكثر من ١٧ عاماً فى النفى بسبب مقاومته العنيفة لأنتشار الأريوسية التى كان يسندها بعض الأباطرة ؛ وقد نفى خمس مرات .

١ ــ فى عهد قسطنطين (٣٣٥ــ٣٣٧ م) فى تريف .
٢ ــ فى عهد قسطنطيوس (٣٣٩ــ٣٤٦ م) حيث زار روما .
٣ ــ فى عهد قسطنطيوس (٣٥٦ــ٣٦٢ م) حيث عاش فى برارى مصر .
٤ ــ فى عهد يوليانوس (٣٦٢ــ٣٦٣ م) حيث عاش فى برارى مصر .
٥ ــ فى عهد فالنــز (٣٦٥ــ٣٦٦ م) حيث عاش فى برارى مصر .

أتباع مليتوس(٧) والأريوسيون

ظهر أتباع مليتوس كأنهم غيورون جداً على الإيمان المسيحى ، فسببوا انشقاقاً دام زماناً طويلًا فى الكنيسة المصرية وذلك برفضهم عودة الكهنة الذين ضعفوا أمام الأضطهاد ، كما وضعوا عقبات أمام العلمانيين فى توبتهم . ليس عجيباً أن يدخلوا فى اتفاقية مشتركة مع الأريوسيين منكرى لاهوت المسيح ضد الحق . لقد نسى الفريقان عداوتهما واتفقا معا لاضطهاد الكنيسة فى شخص باباها أثناسيوس .

بدء المتاعب

فى عام ٣٣٠ م سأل يوسابيوس أسقف نيقوميديا الأريوسى الإمبراطور قسطنطين أن يكتب لأثناسيوس ليقبل أريوس فى شركته . رفض القديس أثناسيوس طلب الإمبراطور غير مبالٍ لا بتملق الأريوسيين ولا بتهديدات الإمبراطور . كتب يوسابيوس إلى الميليتيين المصريين يحثهم على اتهام أثناسيوس بسلوكيات شخصية دنيئة . وبالفعل اتهموه بانه كان يجبى ضريبة عامة من الكتان لاستخدامه فى كنيسته ، كما قدموا اتهامات أخرى سخيفة.أمام الامبراطور تمكن القديس أن يثبت براءته من هذه التهم وعاد إلى الاسكندرية منتصراً يحمل معه رسالة تمتدحه من القسطنطينية ، دُعى فيها « رجل الله » و « الإنسان المكرم جداً » .

مجمع صور (٣٣٥ م)

أُتهم أثناسيوس بعد ذلك بقليل بقتله الأسقف الميلاتى أرسانيوس ، وانتهاكه بتولية عذراء كرست حياتها لله ، وأنه طلب من وكيله أن يحطم كأس الافخارستيا الذى كان يستخدمه كاهن يُدعى اسخيراس ، مع اتهامات أخرى . صُدم قسطنطين عند سماعه هذه الاتهامات الخطيرة فأصدر أمراً للبابا أن يبرر موقفه أمام مجمع عقد فى قيصرية فلسطين (٣٣٣ـــ٣٣٤ م) التى كان أسقفها يوسابيوس وهو أريوسى . رفض البابا المثول أمام هذا المجمع ، فاتهمه أعداؤه بالكبرياء والعناد أمام الإمبراطور الذى بدأ يأخذ عنه فكرة سيئة ، فأمر بعقد مجمع آخر فى صور حيث أمر أثناسيوس بالظهور .

فى صور انكشفت مكائد الميلاتيين ، وأراد الأريوسيون تمزيقه لولا تدخل الحاكم الإمبراطورى الذى خلصه من أيديهم . فى الحال هرب إلى القسطنطينية بينما أصدر المجمع أمراً بعزله فى غيبته . التقى القديس بالإمبراطور وكشف له الأمر ، لكن الإمبراطور غيّر رأيه ووافق على قرار المجمع ، ونفاه إلى تريف ، ذلك لأنه سمع بأن البابا هدد بمنع شحن القمح من مصر إلى القسطنطينية .

فى مايو ٣٣٧ م مات قسطنطين وأعاد ابنه قسطنطين الصغير البابا إلى كرسيه . وفى سنة ٣٣٨ جاءه القديس أنطونيوس إلى الإسكندرية يؤكد له إعجابه به وتقديره له .

الهروب إلى روما

بعد عامين قُتل قسطنطين الصغير فى معركة بأكويلا ، وتسلط يوسابيوس أسقف نيقوميديا على الإمبراطور قسطنطيوس الذى تخضع الإسكندرية له . لُفقت افتراءات جديدة ضد أثناسيوس فاتهم بإثارة قلاقل وفتن سببت سفك دم ، وبأنه حجز لنفسه الغلال التى سبق فعينها قسطنطين للأرامل والكهنة . قدمت البراهين من الأساقفة فى ليبيا تبرر موقفه وتفضح متهميه .

على أى الأحوال ، أصدر مجمع بأنطاكيا عام ٣٣٩ قراراً بعزله ، حيث اختير شخص من فريق يوسابيوس يُدعى بستوس ، كاهن محروم ليقام رئيس أساقفة على

الإسكندرية . وإذ ثبت عدم صلاحيته ساموا غريغوريوس الكبادوكى بالقوة . عندئذ اضطر القديس أثناسيوس أن يهرب إلى روما حيث رحب به البابا يوليوس .

فى عام ٣٤٢ م قابل القديس أثناسيوس قسطنس إمبراطور الغرب فى ميلان . أثار اليوسابيون أخاه قسطنطيوس إمبراطور الشرق بأن البابا طلب من قسطنس عقد مجمع لأساقفة الغرب والشرق متجاهلا إياه . لقد برهن البابا لقسطنطيوس بأن هذه الفكرة نبعت عن قسطنس نفسه قبل الالتقاء به .

فى عام ٣٤٣ م عُقد مجمع فى سرديكا أى صوفيا (عاصمة بلغاريا) على حدود المملكتين ، غير أن الأساقفة الأريوسيين من الشرق انسحبوا ليجتمعوا فى مدينة فيلوبوليس بتراسيا ، مقابل سرديكا ، تقع فى حدود مملكة الشرق ، حيث حرموا أثناسيوس ويوليوس أسقف روما ومن قبلوا أثناسيوس فى الشركة . أما مجمع سرديكا فحرم أحد عشر أسقفاً أريوسياً .

مُنع القديس أثناسيوس من دخول الإسكندرية لكن عناية الله بددت شر الأريوسيين . إذ قيل إن قسطنس أرسل أسقفين شيخين الى أخيه إمبراطور الشرق . وفى رحلتهما عند انطاكيا حرض الأريوسيون امرأة شريرة أن تدخل حجرة أحدهما ، وإذ وجدته شيخاً وقوراً صرخت فاجتمع الشعب وأعلنت صراحة ما قد حدث . عندئذ أدرك قسطنطيوس حيل الأريوسيين ، فأصدر أمره بعودة الأساقفة المنفيين إلى كراسيهم ، وأرسل ثلاث رسائل إلى القديس أثناسيوس ، وقام الأخير بزيارة الإمبراطور قبل عودته إلى الإسكندرية .

مجمعا آرل وميلان

قُتل قسطنس معين القديس أثناسيوس على يدى ماجنتيوس (٣٥٠ م) ، فنشبت حرب أهلية بين قسطنطيوس وماجنتيوس دامت ثلاث سنوات . وفى عام ٣٥٣ صار قسطنطيوس امبراطور المملكة كلها . اتهم الأريوسيون أثناسيوس بأنه كانت له علاقات مشوبة مع القاتل ماجنتيوس ، فأصدر الإمبراطور قراراً بإدانته خلال مجمعين انعقدا فى آرل (سنة ٣٥٣) وميلان (سنة ٣٥٥) بدعوة من ليبريوس خليفة يوليوس أسقف روما .

هاجم الدوق سيرانيوس مع قوة من الجند كنيسة القديس ثيوناس فى مساء الثامن من فبراير سنة ٣٥٦ م بينما كان أثناسيوس والشعب يقيمون رفع بخور عشية . أُنقذ البابا بواسطة أعوانه ، واختفى فى البرية لمدة ست سنوات .

فى بداية عام ٣٥٧ دخل جورج الكبادوكى الدخيل إلى الإسكندرية ، مستخدماً العنف ضد أعوان أثناسيوس ، مسلماً الكنائس للأريوسيين . غير أن سياسة جورج أثارت مقاومة شديدة اضطر على أثرها أن يهرب خوفاً على حياته ليعود فى السنة التالية إلى الإسكندرية . بعودته قُتل بيد الوثنيين (ربما لسرقة ما اغتصبه من أموال) .

انتهى نفى القديس أثناسيوس فى فبراير سنة ٣٦٢ م عندما صار يوليانوس إمبراطوراً ، إذ سمح للأساقفة الذين نفاهم قسطنطيوس بالعودة . فى الإسكندرية عقد القديس أثناسيوس مجمعاً ، دعى « مجمع المعترفين » ، إذ كان جميع الأساقفة الحاضرين ممن تألموا بسبب الإيمان . غير أن نشاط القديس أثناسيوس الحيوى أثار سخط يوليانوس ، فأمر بتركه مصر ، واصفاً اياه كمثير للشغب ، وعدو للآلة . هرب القديس ليقضى ستة أشهر فى مقبرة أبيه ، لكن الإمبراطور أصرّ على تركه الإسكندرية ، طالباً من والى الإسكندرية أن يقتله . هرب البابا إلى صعيد مصر بالنيل ، وإذ اقتربت سفينة الوالى من قاربه وقف وقال للجند إن أثناسيوس ليس بعيداً عنهم ، وإذ لم يعرفوه أبحروا بسرعة ليلحقوا به بينما عاد هو إلى مدينة خلف ممفيس إلى حين ، ثم صار يتنقل بين الأديرة فى صعيد مصر بمنطقة طيبة .

فى يونيه ٣٦٣ قُتل يوليانوس وعاد الأساقفة من منفاهم . عاد القديس أثناسيوس إلى كرسيه حيث عقد مجمعاً بعث برسالة إلى الإمبراطور جوفيان يشرح له قانون الإيمان النيقوى ، كما قام البابا بزيارة الإمبراطور الذى كرّمه وأعطاه رسائل عند عودته إلى الإسكندرية ..

نفيه الأخير

مات جوفيان فى بدء العام التالى (فبراير ٣٦٤) ومع أن فالنتيان خلفه كان من معينى أصحاب قانون الإيمان النيقوى غير أنه عين أخاه فالنس الأريوسى الميول

إمبراطورا فى الشرق . أمر فالنز كل الأساقفة الذين نفاهم قسطنطيوس وأعادهم يوليانوس أن يغادروا كراسيهم . وللمرة الخامسة يترك القديس أثناسيوس الإسكندرية ليقضى خمسة أشهر (مايو ٢٦٥ـ فبراير ٣٦٦) فى مكان خفى ، وتحت ضغط الشعب رجع إليهم .

عاد البابا وهو فى السبعين من عمره ليقضى السبع سنوات الأخيرة من عمره فى سلام . فى سنة ٣٦٩ عقد مجمعاً محلياً بالاسكندرية ليناقش الإيمان الأرثوذكسى ، وفى مايو ٣٧٣ م رقد فى الرب .

كتاباته

إنه من العجيب أن يجد القديس أثناسيوس وقتاً لتقديم حصيلة ضخمة من الكتابات بالرغم من نفيه المستمر وكثرة نشاطاته .

كتب راهب من القرن الثامن : « إن وجدت كتاباً لأثناسيوس وليس معك ورق لتنسخه اكتبه على قميصك » .

يمكن تقسيم كتاباته إلى :

١ ـــ كتابات دفاعية وعقيدية ، مثل :

ا ـــ « ضد الوثنيين » و « تجسد الكلمة » .
ب ـــ ثلاث مقالات ضد الأريوسيين .

٢ ـــ رسائله ، تضم :

ا ـــ الرسائل الفصحية .
ب ـــ أربع رسائل لسرابيون .
جـ ـــ رسائل تعليمية عن « تعليم ديونسيوس » ، « قوانين نيقية » ، مع رسائل تعالج موضوع التجسد .
د ـــ رسائله الأسقفية الرسمية .

٣ ــ كتابات تاريخية جدلية :

ا ــ دفاع ضد الأريوسيين .
ب ــ دفاع ضد قسطنطيوس .
جـ ــ دفاع عن هروبه .
د ــ تاريخ الأريوسيين .

٤ ــ نسكيات ، تضم :

ا ــ حياة أنطونيوس .
ب ــ مقالات عن البتولية ...
جـ ــ حياة سنكتيكى المنسوب لأثناسيوس .
د ــ مقتطفات من مقالاته عن البتولية بالقبطية والسريانية والأرمنية .

٥ ــ تفسيرية :

ا ــ تفسير المزامير .
ب ــ تعليقات على المزامير ، الجامعة ، نشيد الأناشيد ، التكوين .

شخصيته

١ ــ تأثر القديس أثناسيوس جداً بالشهداء الذين رآهم فى صبوته ، فقد أدرك أن نصرتهم على الموت إنما هى خلال تقواهم فى المسيح يسوع ، أو خلال اتحادهم مع الآب فى ابنه بالروح القدس . وإذ أراد اقتفاء أثرهم اشتاق أن يقدم حياته ذبيحة يومية لحساب إيمان الكنيسة . بهذه الروح صار قائداً حقاً سلطانه لا يقاوم[٨] . لقد آمن أنه إنما يعمل عمل المسيح ، لذا فالنصرة النهائية قادمة من عند الرب ، لذا لم يترك وسيلة لبلوغها . إنه لم ييأس قط فى أظلم ساعات الصراع .

٢ ــ تعلن كتاباته عن ذكائه ونقاء شخصيته الرائعة[٩] . يقول : [عمل الدين ليس الضغط بل الإقناع[١٠]]. هذا ويليق بنا ملاحظة أن القديس أثناسيوس قد آمن بأن علة الهرطقات هو الاعتماد على العقل دون الإيمان ، لهذا

أعطى الأولية للإيمان فوق العقل[١١] . يقول : [كيف يتجاسر الأشرار أن ينطقوا بغباوة غير لائقة ، إذ هم بشر يعجزون حتى عن وصف ما هو على الأرض ؟ لماذا أقول : « ما هو على الأرض »؟ ليخبرونا إذن عن طبيعتهم ذاتها إن كانوا يقدرون على فحصها ؟!...[١٢]]

٣ ــ صداقته الحميمة والتصاقه الشديد بمعلمه القديس أنطونيوس الكبير وبرهبان آخرين خلال حياته كان له أثره العميق فى المفاهيم اللاهوتية . فاللاهوت بالنسبة له ليس حقاً ميتا فزيقياً مجرداً ، إنما هو الحق الذى يفوق الطبيعة والذى له أثره فى الحياة اليومية[١٣] . إنه يخدم مطالب التقوى اليومية فى المسيح يسوع بالروح القدس . فالقديس أثناسيوس لم يكن فيلسوفاً مسيحياً كما كان أبعد ما يكون عن أن يكون لاهوتياً عقيدياً مجرداً (بالمعنى الحديث) ، إنما كان اهتمامه رعوياً . غايته الوحيدة هى خلاص النفوس[١٤] .

يقدم نموذجاً للعلاقة الوثيقة بين العقيدة الكنسية والتقوى ، إذ يقول : [الإيمان والتقوى حليفان وأختان ، من يؤمن بالله فهو تقى ، ومن يسلك بتقوى يؤمن بالأكثر[١٥]].

فى كل مقالاته ضد الأريوسيين يعلن عن تجديد طبيعتنا بواسطة ابن الله المصلوب :

[إن كان من أجلنا قدّس نفسه (يو ١٧: ١٨، ١٩) ، وقد صنع هذا إذ صار إنساناً ، فمن الواضح أن حلول الروح عليه وهو فى الأردن كان حلولاً علينا إذ يحمل جسدنا[١٦]].

[عندما قيل أنه مسح بطريقه بشرية (مز ٤٥: ٧، ٨) ، فنحن الذين مُسحنا فيه ، وهكذا عندما اعتمد فنحن الذين اعتمدنا فيه[١٧]].
[لم يكن إنساناً صار إلهاً بل كان الله صار إنساناً ليؤلهنا[١٨] (نحمل عمله فينا)].

٤ ــ كرس القديس أثناسيوس نفسه لقراءة الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد وممارسة فعل كلمة الله فيه . لم يكتب تفسيراً له ، لكن جاءت كتاباته

كلها من الكتاب . لقد آمن بأن الهراطقة يخدعون البسطاء بتقديم مقتطفات من الكتب المقدسة ويغفلون أجزاء أخرى منها . إنهم يتظاهرون كأبيهم ابليس (يو ٨: ٤٤) بأنهم يدرسون ويقتطفون لغة الكتاب لكى يخدعوا بمكرهم الآخرين(١٩) .

يقول : [عملات الحق تكون أكثر أصالة إذا استخرجت من الكتاب المقدس عن أن تستخرج من مصادر أخرى(٢٠)].

٥ ــ كان تقليد الكنيسة مرشداً له فى دراسته للكتب المقدسة ، إذ كان يبحث باجتهاد فى كتابات المعلمين القدامى كما شهد بنفسه(٢١) . فى موضع آخر يعلن أنه قد تعلم عن لاهوت المسيح من المعلمين القديسين الموحى لهم ومن الشهداء(٢٢) .

أيضا يقول : [احسب أن هذا هو معنى العبارة ، هذا هو المعنى الكنسى لها(٢٣)].

٦ ــ كرجل كنسى تقى كان محباً للعبادة ، يمارس وسائط النعمة بعمق وتكريس روحانى .

ا ــ فعندما حاول القائد سيرينوس القبض عليه كان البابا يقود شعبه فى خدمة ليلية (للسهر). وقد كتب عن ممارسته لخدمات السهر بطريقة غير مباشرة .

ب ــ كتب عن خبرة عن أثر الشركة فى الأفخارستيا ، [نتألّه (نحمل عمله فينا) لا بشركتنا لجسد إنسان ما ، بل بقبولنا جسد الكلمة نفسه(٢٤)].

٧ ــ فى صراعه ضد الهراطقة كان هدفه واضحاً ، وكان قلبه مملوءاً حباً شاملًا . كان توّاقاً نحو وحدة الكنيسة ، لم يصارع من أجل تعبيرات أو كلمات(٢٥) ، إنما كان يطلب أن يجذب حتى الهراطقة إلى حياة التقوى القائمة على الحق الإنجيلى . يقول كواستن : « رغم مقته الشديد للخطأ ، وعنفه فى مقاومته فقد كان يتحلى بسجية يندر وجودها فى شخصية كهذه ، إذ كان قادراً وسط حمية المعركة أن يسامح ويلاطف الذين ضلّوا بنية صالحة(٢٦) ».

اللاهوت عند القديس أثناسيوس

إننا مدينون للقديس أثناسيوس بتنقيته الإيمان الجامع من الهرطقة الأريوسية . أو الاتجاهات الأريوسية . وأظن أنه يليق بنا فى هذا المقام دراسة الأريوسية لنتعرف على اللاهوت عند القديس أثناسيوس .

الأريوسية

كان أريوس (٢٥٦ـــ٣٣٦ م) مواطناً ليبياً ، تلقى تعليمه اللاهوتى فى أنطاكية فى مدرسة لوقيانوس[٢٧] . ذهب إلى الإسكندرية حيث سامه القديس بطرس بابا الإسكندرية شماساً[٢٨] . حرمه البابا بعد ذلك غير أن ارشيلاوس من بعده سامه كاهناً وسلمه كنيسة بوكاليا ، وهى كنيسة الإسكندرية الرئيسية فى ذلك الوقت . نجح كواعظ ، لكنه بكبريائه غلّب العقل على الإيمان فى دراسته للاهوت ، وجاء لاهوته حصيلة فكر لاهوتى عقلانى[٢٩] .

حاول أريوس تفسير الإعلان المسيحى بطريقة يمكن لمن لهم الفكر الوثنى من جهة الله والحياة الوثنية أن يتقبلوه ، فجاء تفسيره خالياً من المفاهيم المسيحية الأساسية ومن الحكم السليم والنظرة الصائبة[٣٠] . ويمكن تلخيص اللاهوت عنده فى الآتى :

١ ـــ كان اهتمامه الأعظم تأكيد الوحدانية ، والأساس الأول هو فى بساطة « الفردية » ، بكون الله الواحد المطلق ، الغامض ، البعيد ، غير المعروف ، الذى لا يُدرك ، ولا يمكن الالتقاء به ، مخفى فى سر أزلى ، منفصل عن البشر بهوة غير محدودة[٣١] . هكذا فهم الوحدانية بطريقة عددية ، غير قادر على إدراك « وحدة » الثالوث القدوس فى الجوهر .

٢ ـــ لكى يخلق الله المسكونة ، أوجد اللوغوس قبل الزمن[٣٢] من العدم ، كأداة للخلقة . لهذا فهو ليس بالحق الله بالطبيعة ، إنما هو ابن الله بمعنى أخلاقى . إنه كائن وسيط بين الله والعالم .

٣ ـــ صار اللوغوس جسداً بمعنى أنه قام بعمل النفس فى يسوع المسيح .

٤ ــ الروح القدس هو أول خلائق اللوغوس ، فهو إله أقل من اللوغوس .

بهذا الفكر اللاهوتى عزل أريوس الله عن البشرية ، مقدماً إياه كائناً جامداً ، لاغياً الحب الإلهى بين الثالوث القدوس ، مفسداً سرّ الخلاص ، متجاهلًا النبوات ومنكراً تجديد طبيعتنا خلال التبنى والاتحاد مع الله الآب فى ابنه .

فكر القديس أثناسيوس مقابل الأريوسية

فى صراعه ضد الأريوسية لم يستخدم القديس أثناسيوس الفلسفة إنما ركز على الإيمان معتمداً على الوحى الإلهى . ويمكننا تلخيص لاهوتياته فى عبارة واحدة : [الله أخذ إنسانيتنا لكى نشاركه حياته]. تحدث الله معنا فى العهد القديم خلال أنبيائه ، أما فى العهد الجديد فجاء إلينا بإرساله ابنه الوحيد لكى تتجدد طبيعتنا فيه .

الثالوث القدوس

يقول القديس أثناسيوس : [إذن يوجد ثالوث ، قدوس ، كامل (perfect) ، نعترف أنه الله فى الآب والابن والروح القدس ، ليس فيه شيء غريب أو خارجى يلتحم به ، ولا يتكون من واحد يخلق وآخر مخلوق ، بل هو خالق ، ثابت ، غير منظور بطبيعته ، قوته للعمل واحدة . الآب يفعل كل شيء خلال الابن بالروح القدس . هكذا تبقى وحدة الثالوث محفوظة . هكذا يكرز بالله الواحد فى الكنيسة ، « على الكل وبالكل وفى الكل » أف ٤:٦ ... إنه ثالوث ليس فقط فى الاسم وبالكلام بل بالحق والواقع[٣٣]].

وكثيراً ما يكرر القديس أثناسيوس مَثل النور الصادر من الشمس ، اذ كان مثلًا مشهوراً لدى مدرسة الإسكندرية ، ليُظهر أن الولادة فى الله تختلف عن الولادة البشرية ، لأن الله غير منظور[٣٤] .

اللوغوس والخلاص

أصل التعليم الأثناسوسى بخصوص اللوغوس هو فكرة الخلاص[٣٥] ؛ فيؤكد بحرارة أن الله وحده يقدر أن يخلص الجنس الساقط[٣٦] (الاهتمام السوتيريولوجى).

١ ــ ما كنا نخلص لو لم يصر الله إنساناً ، فإن الإنسان فى حاجة إلى الخالق ليُخلِّص طبيعته الساقطة ويردها إلى أصلها ، واهباً إياها صورة الله ، ومصلحاً إياها من الفساد إلى عدم الفساد . فيه تغلب البشرية الموت وتعاد خلقتها[٣٧] .

٢ ــ لما كان ابن الله واحداً مع الآب فى الجوهر ، قدم نفسه ذبيحة قادرة على الإيفاء بدين خطايانا وتحقيق العدالة والرحمة الإلهية فى نفس الوقت .

٣ ــ إنه الله غالب الشيطان ليس لأجل نفسه فقط وإنما لأجلنا جميعاً .

٤ ــ بكونه الله الحق أعاد لنا كرامتنا ، واهباً إيانا البنوة للآب فيه بالروح القدس . يقول القديس أثناسيوس : [صار إنساناً لنصير نحن آلهة[٣٨]] ، [وإن كان يوجد ابن واحد بالطبيعة ، ابن حقيقى وحيد الجنس ، صرنا نحن أبناء ليس بالطبيعة والحق بل بنعمته التى تدعونا ، وإن كنا بشراً على الأرض لكننا دعينا آلهة[٣٩]].

٥ ــ التجسد قدمنا لله ، كلمة الله المتجسد يعلن الآب لنا ، والآب يجتذبنا نحو الابن (يو ١٧:٢٦ ؛ ٦:٤٤).

بخصوص السيد المسيح Christology

١ ــ يعلن القديس أثناسيوس أن تجسد المسيح وموته ليسا عاراً لله بل هما لمجده ، صارا سببا لنعبد الرب[٤١] .

٢ ــ أعلن « وحدة طبيعة المسيح » بعبارات دقيقة ، إذ يقول : [بكونه ابن الله بحق صار أيضا فى نفس الوقت « بكراً بين إخوة كثيرين » . لذلك لم يكن ابن الله قبل إبراهيم غيره بعد إبراهيم ، ولا وجد واحد أقام لعازر وآخر سأل عنه ، إنما هو بعينه الذى كإنسان قال : « أين وضعتم لعازر ؟» يو ١١:٣٤ ؛ وبكونه الله أقامه . هو بنفسه بكونه إنساناً كإنسان تفل وبكونه إلهاً كابن الله فتح عينى المولود أعمى ؛ وبينما ــ كما يقول بطرس (١ بط ٤:١) تألم بالجسد فبكونه الله فتح القبر وأقام الموتى[٤٢]].

٣ ــ أخذ ناسوتا كاملًا ، إذ يقول : [لم يأخذ المخلص جسداً بدون نفس ، ولا بدون حواس أو عقل ، فإنه لم يكن ممكناً عندما صار الرب إنساناً لأجلنا ، أن يكون جسده بل عقل ، وإلا ما كان الخلاص الذى قدمه الكلمة نفسه خاصاً بالنفس أيضاً مع الجسد[٤٣]].

٤ ــ اللوغوس ليس أداة خارجية لتحقيق الخلقة ؛ فإن الله ليس فى عوز إلى أداة للخلق أو حتى للخلاص . اللوغوس هو واحد مع الآب فى الجوهر . [فلو أن الجوهر الإلهى غير مثمر فى ذاته بل عقيم كما يقولون ، يكون كنور لا يضيىء ، وكينبوع جاف . أما يخجلون من هذا القول عن طاقته العاملة ؟![٤٤]].

الروح القدس

يدافع عن لاهوت الروح القدس فى رده على الأريوسيين القائلين بأنه مخلوق أقل من اللوغوس . كما كتب أيضا عن الروح القدس فى أربع رسائل وجهها إلى الأسقف سيرابيون . لاهوتياته بخصوص الروح القدس هى بعينها كلاهوتياته عن المسيح . يلزم أن يكون الروح القدس هو الله ، لأنه لو كان مخلوقاً ما كنا ننال شركة مع الله فيه .

١ ــ يقول : [إن كنا بشركة الروح صرنا « شركاء فى الطبيعة الإلهية » ٢ بط ١ : ٤ ... فإن طبيعته هو الله[٤٥]].

٢ ــ يحدد القديس أثناسيوس أن الروح القدس منبثق من الآب[٤٦] .

٣ ــ يعلن القديس أثناسيوس عمل الروح القدس فى حياتنا . إنه ينبوع التقديس الحقيقى ، به نتقبل المسحة والختم لنكون شركاء المسيح ، شركاء الطبيعة الإلهية . خلال المعمودية والمسحة ننعم بالعضوية فى الكنيسة به .

الروح القدس هو الذى يعين الأساقفة ليرعوا قطيع الله .

١٢ ـــ القديس أثناسيوس والأبوللينارية

صديق القديس أثناسيوس

كان أبولليناريوس الصغير (حوالى سنة ٣١٠ م ـــ حوالى ٣٩٠ م) ابن رجل بليغ فى بيروت يدعى أيضا أبولليناريوس الكبير ، معه أعاد كتابة الكثير من الكتاب المقدس بطريقة كلاسيكية حينما أصدر الإمبراطور يوليانوس (٣٦١ـــ٣٦٣ م) أمره بمنع المسيحيين من استخدام الطريقة الكلاسيكية الوثنية . كان محامياً غيوراً أرثوذكسياً ضد الأريوسيين ، وبهذا توطدت بينه وبين القديس أثناسيوس صداقة وطيدة[١] .

[كان أبولليناريوس أسقف اللاذيقية فى سوريا قد هيأ نفسه كنيقوىٌّ غيور ، وكمقاوم ممتاز ضد حركة يوليانوس التى استهدفت احياء الوثنية ، تسنده المصادر (ضد الوثنية والدفاع عن المسيحية) . كان يُنظر إليه بحق كأفضل لاهوتى فى عصره بعد أثناسيوس ، وكان باسيليوس القيصرى واحدا من كثيرين من الجيل الأصغر من المسيحيين الذين كانوا يطلبون مشورته[٢]] .

أبولليناريوس واللاهوت الإسكندرى

فى غيرته أثناء الدفاع عن الإيمان الأرثوذكسى ضد الأريوسيين ، استخدم أبولليناريوس اصطلاحات اللاهوت الإسكندرى ، لكنه أراد أن يقدم نظاما للاهوت الكنسى بطريقته الخاصة ، فسقط فى بدعة خطيرة . ويذكر القديس غريغوريوس أسقف نزينزا أن بداية الأبوللينارية يمكن أن ترجع إلى حوالى سنة ٣٥٢ م ، غير أن تعاليمها لم تنتشر بصورة عامة حتى انعقاد مجمع الإسكندرية ، لأن مندوبى أبولليناريوس أُرسلوا إلى القديس أثناسيوس لمساندته (ضد الأريوسية) . فى عام ٣٧٢ م كتب القديس أثناسيوس كتابين يُفنِّد هرطقته دون ذكر اسمه ، ربما لأجل الصداقة القديمة التى ربطته بأبولليناريوس[٤] .

وبسبب هذه الصداقة الوطيدة واستخدام أبولليناريوس المصطلحات اللاهوتية

الإسكندرانية ، خاصة تعبير « ميا فيزيس تو ثيؤ لوجيو ساركومين » « طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد » ، ودفاعه عن الاتحاد الأقنومى بين لاهوت المسيح وناسوته ، اعتاد مقاومو الإسكندرية أن يتهموا لاهوتنا بأنه أبوللينارى ، وللأسف فإنه حتى بعض الدارسين المحدثين يعتقدون هذا .

اللاهوت الأبوللينارى

١ ــ اعتقد أبولليناريوس أن الأريوسيين لم يستطيعوا قبول لاهوت المسيح لأن اللاهوت يقيم منه شخصين : الله وإنسان . لحل هذه المشكلة قال ابوللليناريوس بأن الطبيعة البشرية تتكون من جسد ونفس حيوانية ونفس عاقلة (روح) . أخذ اللوغوس الجسد مع النفس الحيوانية دون النفس او الروح العاقلة ، لأن اللاهوت احتل مكانها . يقول : [حققت الطاقة الإلهية دور الروح المحيية والعقل البشرى[٥]] . ليس من المهم مناقشة إن كان أبوللليناريوس من القائلين بأن الانسان يتكون من عنصرين (dioctomist) أى من الجسد والنفس ؛ أو من القائلين بأنه يتكون من ثلاثة عناصر (tricotomist) أى من الجسد والنفس الحيوانية والنفس العاقلة ؛ انما ال المهم هنا أنه اعتقد بأن اللاهوت أو اللوغوس قد اتحد بالعنصر الجسدى للإنسان ، محتلًا موضع النفس متحداً بالجسد الذى أخذه من العذراء مريم . هذا الحل وضعه أبوللليناريوس كطريق للهروب من كل المصاعب وكتفسير صحيح ليوحنا ١٤:١ ، « الكلمة صار جسدا » .

لا يمكن للمسيح أن يكون له ناسوت كامل لسببين (فى عينى ابوللليناريوس) :

ا ــ السبب الميتافزيقى (فلسفى عقلى) الذى يقول بأن كائنين كاملين ــ الله وإنسان ــ لا يمكن أن يحققا وحدة بل مجرد اختلاط . تفسيره لوحدة طبيعة المسيح اعتمد على تعبير : « طبيعة واحدة للمسيح » لكن بطريقة جامدة[٦] ، بعيدة تماماً عن اللاهوت الاسكندرى .

ب ــ السبب الفيزيقى (الطبيعى) ، وهو أن النفس العاقلة تمثل كرسى (سلطة) ومركز قوة الإرادة الذاتية للخير والشر ، فتعطى احتمالًا لصنع الخطية

بالنسبة للمسيح . يقول بأن العقل البشرى « ضعيف ومستعبد للأفكار الدنسة[٧] » . استبعاد النفس الإنسانية والفكر البشرى فيه تأكيد أن المخلص بلا خطية ، واستبعاد لامكانية وجود إرادتين وعقلين متعارضين فى المسيح[٨] .

٢ ـــ اتحد اللاهوت مع الجسد الذى أخذه من مريم العذراء ليحل محل النفس البشرية . هكذا كان « كائناً سماوياً » ، ليس لأن جسده نزل من السماء، وإنما صارت الطبيعة الجسدية إلهية خلال اتحادها باللاهوت[٩] .

يقرر Kelly : [كانت نظريته هكذا[١٠] : إن الكلمة كان الحياة الوحيدة لله ـــ الإنسان ، صاهراً الطاقة الحية والحركة فيه حتى على المستوى الفيزيقى والبيولوجى . إذ قُدم اعتراض بأن هذا يجعل منه شخصاً مختلفاً عن الإنسان العادى ، لا يتردد أبولليناريوس فى قبول ذلك . إنه يجد تأكيداً للاختلاف فى كلمات مثل هذه النصوص : « وُجد كإنسان » ، « فى شبه الناس » ، مقترحاً[١٢] بأن المعنى اللاهوتى للميلاد البتولى يكون له قيمته الثمينة فى الحقيقة بأن الروح الإلهى حل محل الـ spermatic matter الذى يهب حياة للشخص العادى[١٣]] .

يليق بنا ملاحظة أن أبولليناريوس وأوطيخا بعد ذلك قد أُتهما بالقول بأن المسيح أخذ شكل إنسان لكن واقعه ليس من جسد والدته . يقول ستيفنسونس : [لم يكن هذا هو رأى أوطيخا حقيقة إنما هو رأى بعض معاونيه وبعض الأبوللياريين الذين نادوا بأن جسد المسيح وُجد فى السماء قبل التجسد[١٤]] . قدم Kelly هذا التعليق على طومس لاون الذى اتهم أوطيخا بهذا الأمر . واننى أود إضافة أنه وإن كانت كنيستنا تنظر إلى أبولليناريوس وإلى أوطيخا أنهما هرطوقيان ، إلا أنها ترى أنهما لم يعتقدا بأن جسد يسوع المسيح سماوى ، ولا أيضا معاونوهم نادوا بهذا ، إنما هذا كان فى نظر أضدادهما كنتائج طبيعية استنتجها الأضداد من عقيدتيهما . كثير من اللاهوتيين يتهمون الغير بعقائد لا يعلنها الغير بل وربما لا تخطر بأفكارهم .

٣ ـــ حاول أبولليناريوس بطريقته الخاصة أن يقدم نظاماً للاهوت الإسكندرى

به يحمى وحدة المخلص على ضوء تأكيد القانون النيقوى ، مؤكداً أن المسيح أقنوم واحد وطبيعة واحدة .

لقد سُرّ أن يتحدث[١٥] عن المسيح أنه « الله المتجسد » (ثيؤس ان ساركوس) ، « جسد حامل لله » (ثيؤس ساركوفورس) أو « الله المولود من امرأة » . بهذه الصفات لم يقصد بأن الجسد ، كما لو كان فى بساطة غطاءً خارجياً ارتداه الكلمة بل بالحرى التصق به فى وحدة تامة مع اللاهوت منذ لحظة الحبل به . إنه يقول : « ليس الجسد شيئاً أضيف إلى اللاهوت من أجل إرادة صالحة بل يكوّن حقيقة واحدة أو طبيعة واحدة معه[١٦] » . المتجسد فى واقعه « اتحاد مركب فى شكل بشرى[١٧] » .

يقول : [الكتاب المقدس لا يفرق بين اللوغوس وجسده ، بل بذاتهما (αυτος) فى طبيعة واحدة ، اقنوم واحد ، قوة (ενεργια) واحدة ، شخص (prosôpon) واحد ، الله كامل وإنسان كامل[١٨]] . فى خطابه الى ديونسيوس يقرر « إننا إن تكلمنا عن طبيعتين هذا يعطى احتمالًا أكبر لأى شخص يرغب فى تحطيم الوحدة فى المسيح . لأنه حيث توجد ثنائية يمكن أو يوجد الانقسام .»

يقرر Kelly : [قَبِل (أبولليناريوس) كسائر المفكرين الإسكندريين فكرة « تبادل الألقاب والخواص » Communicatio idiomatum ، قائلًا بأن « جسد الرب مع بقائه جسداً فى الإتحاد (أى أن طبيعته لم تتغير ولا فقدت) يشارك فى الألقاب والخواص التى للكلمة ؛ وأيضاً الكلمة مع بقائه الكلمة والله فانه فى التجسد يشارك الجسد ألقابه وخواصه » ... أخيراً ، مادام الجسد يشارك بالفعل خواص الكلمة ، يجد أبولليناريوس استدلالًا على أن الطبيعة الإلهية تعمل فى المؤمنين عند تناولهم جسد الرب فى الافخارستيا . فقد قدم الملاحظة : « الجسد المقدس طبيعة واحدة مع اللاهوت ، يهب اللاهوت فى المشاركة فيه[٢٠] » ، ونتيجة لذلك : « نخلص بالشركة فيه كطعام لنا[٢١]] . بمعنى آخر ، المؤمن يتألّه (يحمل عمل الكلمة فيه) بتناول الجسد المتألّه الذى للمخلص] .

هل اللاهوت الاسكندرى أبوللينارى ؟

دفاعاً عن عقيدة طبيعتى المسيح التى أقرها مجمع خلقيدونية نادى بعض الدارسين بأن القديس كيرلس اقتبس عبارات أبوللينارية كما لو كانت لأثناسيوس . البعض الآخر ينظر الى آباء الإسكندرية كما لو كانوا قد مهدوا الطريق لظهور بدعة أبولليناريوس . وإننى هنا أود تقديم بعض مقتبسات هؤلاء الدارسين لمناقشتها والتعرف على العلاقة الحقيقية بين الاسكندرية والأبوللينارية .

يقول W.H.C. Frend : [كثير من أفكار كيرلس أُخذت مباشرة من الكتابات الأبوللينارية التى انتشرت تحت أسماء قادة أرثوذكس مثل أثناسيوس والبابا يوليوس[٢٢] ...].

يعلق J. Stevenson على الرسالة الى « Iovinum » : [هذه رسالة أبوللينارية منسوبة إلى أثناسيوس ، وقد حسبها كيرلس الإسكندرى أيضا هكذا (لأثناسيوس)[٢٣]].

يقول Rowan A. Greer : [مثل أبولليناريوس هكذا خاطر كيرلس بإنكار الحكم الذاتى أو حقيقة إرادة المسيح وحقيقة نفسه (soul) مستبدلاً خبرة هذه الخصائص البشرية بعمل اللاهوت ... الإسكندريون بالطبع ينسبون كل شىء للطبيعة الالهية ، مميزين فقط بين ما هو لائق به بالطبيعة وما هو غير لائق ... الأبوللينارية مرتبطة تماماً بطريقة التفكير الإسكندرى[٢٤] ...].

ونحن لا ندهش لوجود هذا الاتجاه بين بعض الدارسين ، خاصة الذين يحاولون تأكيد أن نسطور ومعلمه ثيؤدور لم يكونا نسطوريين حقاً . هذا وإنه منذ الفتح العربى فى مصر انقطع الحوار اللاهوتى بين كنيسة الإسكندرية والكنائس الأخرى لزمن طويل ، فصارت أفكار اللاهوتيين الغربيين عن كنيستنا مستقاة من مصادر غير مصادرنا ، لهذا يتهموننا بمعتقدات نحن لا نقبلها ولا تخطر على بالنا .

والآن ما هى علاقة اللاهوت الاسكندرى بالأبوللينارية ؟

١ ـــ فى الواقع ، إذ كان أبولليناريوس صديقاً حميماً للقديس أثناسيوس تبنى

كثيراً من تعبيراته اللاهوتية واقتبس بعض عباراته واصطلاحات آباء الإسكندرية الأولين . ليست كتابات أبولليناريوس هى التى نسبت للقديس أثناسيوس حتى بواسطة القديس كيرلس كما يدعى البعض وإلا فلماذا لم يقل آباء مجمع خلقيدونية بهذا ؟! أظن أنه كان الأيسر على آباء خلقيدونية أن يكتشفوا هذا الأمر لقربهم من عصر أبولليناريوس وكيرلس عن أن يكتشفه الدارسون العصريون ، خاصة وأن هرطقة أبولليناريوس قد نوقشت على المستوى العالمى المسيحى فى ذلك الحين ، وإن كتابات القديسين أثناسيوس وكيرلس كانت منتشرة فى كنائس كثيرة .

٢ ـــ يظن بعض الدارسين أن اللاهوتيات بحسب أثناسيوس قد فتحت الطريق للأبوللينارية من جوانب كثيرة :

ا ـــ ركز اللاهوت بحسب أثناسيوس على استعمال لفظ « جسد » يسوع المسيح وليس على ناسوته الكامل (أى الجسد والنفس معاً) .

ب ـــ كان القديس أثناسيوس يؤكد عادة وحدة اللاهوت مع الجسد ، مركزاً على الطبيعة الإلهية كما لو كانت الناسوتية مفقودة . كما كان ينسب الألقاب والخواص التى للاهوت لناسوته Communicato idiomatum .

جـ ـــ استخدم أبولليناريوس بعض المصطلحات والعبارات المقتبسة عن أثناسيوس . ورداً على ذلك أود أن أوضح الآتى :

ا ـــ تركيز القديس أثناسيوس على جسد المسيح لم يُقصد به انكار نفس المخلص البشرية . فالكتاب المقدس نفسه يدعو الإنسان « جسداً » مت ٢٤:٢٢ . وعندما تحدث القديس أثناسيوس عن « تجسد اللوغوس » قصد بالتجسد أن اللوغوس صار إنساناً .

ب ـــ قبل ظهور بدعة أبولليناريوس لم يوجد من أنكر النفس البشرية ليسوع بل أنكر غنوسيون كثيرون جسد المسيح قائلين أنه ليس جسداً حقيقياً ، ويرون أن الجسد عنصر ظلمة وبذلك يستحيل أن يتخذه يسوع . وهذا هو السر فى أن

القديس أثناسيوس فى دحضه هذا الاتجاه كان يركز على « جسد » المسيح وعلاقته باللاهوت . ففى كتابه : « تجسد الكلمة الالهى » يقول : [أما هذه الأمور (أنه أكل وتألم) فقد قيلت عنه ... لكى يظهر أنه أخذ جسدا حقيقياً وليس وهمياً[٢٥]] . هذا وإذ واجه الأريوسيين الذين انكروا لاهوت السيد المسيح لكونه ابن الانسان واتهموا المؤمنين أنهم يعبدون الانسان يسوع المسيح أراد القديس تأكيد أن ناسوت المسيح ليس عقبة فى قبوله اللوغوس ابن الله . اى المجال لم يكن للحديث عن نفسه (His soul) بل كان لتأكيد لاهوته على الرغم من حقيقة تجسده . وفى خطابه إلى أدلفيوس يقول : [ليتعلموا من قداستكم أن هذا الخطأ الذى يرتكبونه مستمد من فالنتينوس ومرقيون وأتباع مانى الذين يستبدلون الجسد الحقيقى بفكرة المظهر (للجسد) ، بينما آخرون يفرقون الذى لا ينقسم منكرين الحق أن « الكلمة صار جسدا وحل بيننا » يو ١٤:١ ... إننا لا نعبد مخلوقاً ، حاشا لنا أن نفكر هكذا ... مثل هذا الخطأ يُنسب للوثنيين والأريوسيين ؛ أما نحن فنعبد رب الخليقة المتجسد ، كلمة الله . فإن كان الجسد فى ذاته جزءا من العالم المخلوق ، لكنه صار جسد الله . ونحن لا نفصل الجسد عن الكلمة ونعبده لذاته ، ولا عندما نرغب فى عبادة الكلمة نعزله عن الجسد ، لكننا نعرف كما قلنا قبلًا أن « الكلمة صار جسداً » ، نعرفه أنه هو الله حتى بعد أخذه الجسد . من هو جامد الحس يقول للرب : « اترك الجسد لكى أعبدك » ...؟ فإن الأبرص لم يفعل هكذا إذ سجد لله فى الجسد ، وعرفه أنه هو الله ، قائلًا : « يارب إن أردت تقدر أن تطهرنى » مت ٢:٨ . ولا بسبب الجسد ظن أن كلمة الله مخلوق ، ولا لأن الكلمة هو صانع كل الخليقة ازدرى بالجسد الذى لبسه . إنما سجد (الأبرص) لخالق العالم الساكن فى هيكل مخلوق ، وتطهّر الأبرص . هكذا أيضاً المرأة نازفة الدم ، التى آمنت ولمست مجرد هدب ثوبه قد شفيت (مت ٢٠:٩) . أيضا البحر بأمواجه الثائرة سمع للكلمة المتجسد وتوقفت عواصفه (مت ٢٦:٨) ... هذه الأمور حدثت ولم يشك أحد ، كما فعل الأريوسيون ، إذ يتجاسرون بالشك ان كان احد يؤمن بالله المتجسد[٢٦] ...] .

واضح إذن أن القديس أثناسيوس فى حديثه عن « الجسد » لا ينكر النفس البشرية للمسيح لأنها لم تكن موضوع نقاش .

جـ ــ فى النص السابق يؤكد القديس أثناسيوس الاتحاد (الاقنومى) بين اللوغوس والجسد (الناسوت) ، ملقباً الجسد « جسد الله » ، وناسباً إليه أعمال « اللوغوس المتجسد » ، لأنه جسده ، واحد معه بلا انفصال . لكن هذا لا يعنى أن اختلاطاً أو امتزاجاً أو تغييراً قد حدث . إنه يؤكد أن هذا الجسد قد خُلق ، وأنه لا يُعبد « فى ذاته » ، وإنما لأنه صار واحداً مع اللوغوس .

د ــ واضح أن القديس أثناسيوس لا يعنى بالتجسد أو بجسد المسيح الجسد بدون النفس البشرية إذ اعتاد أن ينسب إليه أعمالًا تخص النفس البشرية ، فمن عباراته :

[إن كان قد بكى أو اضطرب ، فهذا ليس الكلمة بكونه « الكلمة » يبكى أو يضطرب ، إنما هذا يليق بالجسد ، وإن سأل أن تعبر عنه الكأس ، فإنه ليس اللاهوت هو الذى فى خوف وإنما هذا الانفعال أيضا يخص الناسوت(٢٧)] .

[إنه يعرف (اليوم والساعة) ولكن لكى يظهر ناسوته ، فجهله لهما (مر ١٣:٣٢) يليق به كإنسان ، وإنه قد لبس جسداً يجهل (الأمر) ، فبحسب الجسد يقول « لا أعرف »(٢٨)] .

٣ ــ فى صلوات ليتورجياتنا التقليدية اعتدنا القول : « تجسد وتأنس » ...، أى صار إنساناً كاملًا ، بأخذه ناسوتنا .

فى القسمة السريانية التى نستخدمها فى خدمة الأفخارستيا نؤكد أنه على الصليب نفس ربنا قد فارقت جسده أما لاهوته فلم يفارق نفسه ولا جسده .

٤ ــ الطبيعة الواحدة (ميافيزيس) التى للسيد المسيح كما جاءت فى أبولليناريوس تختلف عنها فى فكر الإسكندرية . فبحسب أبولليناريوس ، العنصران اتحدا معا بطريقة فيها فقد العنصر الإنسانى جزءاً منه ، أما اللاهوت الإسكندرى فيعتمد على أن « خلاص أو تجديد طبيعتنا البشرية فى المسيح يسوع » يتحقق بالتجسد ، إذ أخذ الكلمة طبيعتنا لا لتجديد جسدنا فحسب بل طبيعتنا ككل ، التى تحوى جسداً ونفساً . وأننى أرجو مناقشة هذا الأمر بتوسع فى كتاب آخر إن شاء الرب وعشنا .

\+ \+ \+

١٣ ــ القديس كيرلس والنسطورية

ارتبط اسم القديس كيرلس أبدياً بالصراع الثانى العظيم فى اللاهوتيات الخاصة بالسيد المسيح ، والذى قاد إلى عقد مجمع أفسس (٤٣١ م) وإدانة نسطور[١] . وهو يعتبر أحد الآباء البارزين ولاهوتيي الكنيسة ، وندين له أكثر من أى لاهوتى آخر أدرك التجسد بطريقة آبائية.[٢]

صبـوته

عاش جداه الغنيان التقيان فى ممفيس فى مدينة أركاديا (حالياً ميت رهينة جنوب الجيزة). ولما تنيحا اهتمت مربية أثيوبية وثنية ، لكنها كانت بقلبها محبة للمسيحية ، بالطفلين ، ثاوفيلس وأخته الأصغر منه والدة القديس كيرلس . رافقتهما إلى هيكل أرتيموس وأبوللون ، وعند وصولهم سقطت الأوثان فارتعبت المربية . هربت إلى الإسكندرية حيث التقت بالقديس أثناسيوس الذى روى لها ما حدث معها فى الهيكل فقبلت الإيمان واعتمدت مع الطفلين .

سيم ثاوفيلس بابا للاسكندرية وعاشت أخته فى بيت للعذارى حتى تزوجت برجل تقى من محلة البرج (ديدوسقيا) شمال المحلة الكبرى .

وُلد كيرلس ما بين سنة ٣٧٥ وسنة ٣٨٠ م ، ونال قسطاً وافراً من العلوم الكلاسيكية واللاهوتية حيث كانت الإسكندرية مركزاً عظيماً للتعليم ، هذا بجانب ما تمتع به من تعاليم على يدى خاله .

كان ذكياً للغاية ، موهوباً بصوت ملائكى فى قراءة الإنجيل والترنم بالتسابيح الكنسية ، بجانب قدرته الفائقة على حفظ الكتاب المقدس عن ظهر قلب .

فى برية الإسقيط

يقول : [فى وقت مبكر تعلمت الكتب المقدسة وتدربت على أيدى آباء قديسين أرثوذكس[٣]] ، هنا يقصد بالآباء « الرهبان » . وكما جاء فى سويرس بن

المقفع أن خاله أرسله إلى دير القديس مقاريوس حيث تتلمذ على يدى القديس سيرابيون الكبير . وبعد خمس سنوات استدعاه خاله وسامه شماساً فكاهناً ليعينه فى رعاية شعبه . وكان يرافقه فى الاجتماعات الهامة حتى فى مجمع السنديان بالقرب من خلقيدونية حيث دين القديس يوحنا الذهبى الفم عام ٤٠٣ م .

بابا الاسكندرية

عندما تنيح البابا الإسكندرى ثاوفيلس فى ١٥ اكتوبر ٤١٢ م ، أرادت الدولة سيامة رئيس الشمامسة ثيموثاوس خلفاً له ، لكن بعد يومين من النياحة اختير ابن اخت البابا ، أى كيرلس ، وسيم . وحسب الطقس القبطى زار دير القديس مقاريوس الكبير حيث خدم أول قداس إلهى بعد سيامته .

جهاده

فى عام ٤٣٣ م انشغل القديس كيرلس بتفنيد الاتهامات التى سبق أن أثارها يوليانوس الجاحد فى كتبه الثلاثة : « ضد الجليليين » التى كتبها سنة ٣٦٢ـ٣٦٣ م . هذا،ولا تزال عشرة كتب موجودة من الثلاثين كتاباً التى للقديس كيرلس .

دخل أيضاً فى صراع ضد أتباع نوفاتيوس الذين رفضوا قبول توبة من أنكر الإيمان أثناء الاضطهاد . أيضاً حدثت اضطرابات شديدة ومتاعب للمسيحيين على أيدى اليهود الذين كانوا يمثلون جماعة قوية للغاية فى الإسكندرية . فقد أشاع اليهود أن إحدى الكنائس قد اشتعلت بها النيران ، وإذ اجتمع مسيحيون حولها لإطفائها قاموا بقتلهم . بذل القديس كيرلس كل الجهد لطرد اليهود من المدينة . وبسبب جهاده غير المنقطع ضد ما تبقى من وثنية اُتهم بالمسئولية عن قتل الفيلسوفة هيباتيا التى كانت تتبع الأفلاطونية الحديثة ، وصديقة والى المدينة أورستيس ، كما أخبرنا سقراط(٤) . لقد ماتت بطريقة بشعة على أيدى بعض المسيحيين(٥) فى مارس سنة ٤١٥ م .

القديس كيرلس والقديس يوحنا الذهبى الفم

عقد مجمعاً محلياً فى الاسكندرية ، فيه ضم اسم القديس يوحنا الذهبى الفم إلى مجمع القداس الإلهى والتسبحة . دعاه « الأسقف القديس » ، واقتبس منه عبارات[٦] .

يرى بعض الدارسين أنه بهذا التصرف أخذ مسلكاً مضاداً لمسلك خاله[٧] ، لكن كنيستنا القبطية ترى أنه قد نفذ وصية خاله الذى قدم توبة على ما فعله مع القديس ذهبى الفم وهو على فراش الموت .

القديس كيرلس ونسطور

فى ١٠ أبريل سنة ٤٢٨ م سيم نسطور الراهب الأنطاكى وتلميذ ثيؤدور بطريركاً على القسطنطينية . استخدم عبارة « والدة المسيح ـــ خريستوتوكوس » عن القديسة مريم وليس « ثيؤتوكوس ـــ والدة الإله » . بدأت المعركة بوضوح عندما كرز كاهنه أنسطاسيوس القادم من أنطاكية أمام القديس كيرلس فى ديسمبر ٤٢٨ م ، قائلًا : [لا يدعو أحد مريم « ثيؤتوكوس » ، لأن مريم كانت امرأة ، ويستحيل أن يولد الله من امرأة[٩]] .

أعلن نسطور موافقته على هذا التعليم علانية ، وقدم بنفسه مجموعة عظات فيها ميّز بين الإنسان يسوع المولود من مريم وابن الله الساكن فيه ، فهو يرى أنه يوجد شخصان متمايزان فى المسيح ، ابن مريم وابن الله ، اتحدا ليس أقنومياً بل على مستوى أخلاقى . لهذا لا يُدعى المسيح « الله » بل « ثيوفورون » أى « حامل الله » ، ذلك كما يمكن أن يُسمى القديسون من أجل النعمة الإلهية الموهوبة لهم . وبالتالى فإن مريم ليست والدة الإله بل والدة الإنسان يسوع الذى سكنه اللاهوت .

انتقد نسطور وأتباعه المجوس لسجودهم للطفل يسوع ، كما كرزوا بأن اللاهوت انفصل عن الناسوت فى لحظة الصلب . وإذ سمع القديس كيرلس بهذا استغل الرسالة الفصحية السنوية (لسنة ٤٢٩ م) ليقرر فيها تعليم التجسد

بعبارات واضحة وبسيطة دون إشارة شخصية لاسم نسطور . أوضح أن الناسوت الحقيقى والكامل اتحد بلاهوته فى شخصه الإلهى الواحد . مرة أخرى بعد أربعة شهور كتب رسالة أخرى إلى رهبان مصر فى نفس الموضوع ، ليقوموا بدورهم . عرف نسطور بالرسالتين فثار ثورة عارمة وطلب من شخص يُدعى فوتس أن يرد عليهما . كتب للبلاط فى القسطنطينية ليوضح الأمر ويكسب دعم الإمبراطور والأميرات اللواتى كان لهن أثرهن على فكر ثيؤدوسيوس الثانى وقلبه .

أرسل القديس كيرلس رسائل إلى نسطور يوضح فيها طبيعة السيد المسيح ، بأنه ابنُ الله المتجسد ، شخص واحد ؛ وأن من حق القديسة مريم أن تدعى « ثيؤتوكوس » . فى رسالته الثانية إلى نسطور (فبراير ٤٣٠ م) كتب : [لا نعنى أن طبيعة « الكلمة » قد تحولت فصار جسداً ، ولا تغيّر إلى بشرى يحمل نفساً وجسداً ؛ إنما نؤكد هذا أن الكلمة اتحد أقنومياً بجسد فيه نفس ، بطريقة سرية غير مدركة ، فصار إنساناً ، ودُعى ابن الإنسان ، لكن ليس عن طريق نعمة إلهية أو إرادة صالحة ، ولا بأن اتخذ لنفسه شخصاً بشرياً ؛ وأنه بينما ارتبطت الطبيعتان معاً فى اتحاد حق فهما متغايرتان ، هو مسيح واحد ، ابن واحد عن الاثنين معاً ، ليس بمعنى أن التغاير بين الطبيعتين قد زال خلال اتحادهما ، وإنما عوض اللاهوت والناسوت قُدم لنا رب واحد ، مسيح واحد ، ابن الله باتحاد سرى لا يعبر عنه . لم يولد أولًا كإنسان عادى من القديسة مريم وبعد ذلك حل الكلمة عليه ، وإنما صار واحداً مع الجسد فى ذات الرحم ، فيقال إنه خضع لميلاد حسب الجسد ؛ فجعل الميلاد حسب الجسد منسوباً إليه خاصاً به ... هكذا نعترف بمسيح واحد ورب واحد ، فلا نعبد إنسانا « بجانب » الكلمة ، وإنما نعبد المسيح الواحد بعينه لأن جسد الرب ليس بغريب عنه ، بل بذات الجسد يجلس مع الآب ... أما إذا نبذنا الاتحاد الأقنومى كأمر غير ممكن أو غير لائق ، نسقط فى خطأ القول بابنين ... لهذا تمسك الآباء به . لذلك بجسارة دعوا القديسة العذراء « والدة الإله » . لا يعنى هذا أن طبيعة الكلمة أو اللاهوت وجد له بدايته من القديسة العذراء ، وإنما مادام جسده المقدس المرتبط بالنفس العاقلة قد وُلد منها ، هذا الجسد الذى اتحد به أقنومياً ، لهذا يقال إنه وُلد حسب الجسد[١٠]] .

بعد هذا عُقد مجمع بالإسكندرية وأُرسل خطاب مجمعى إلى نسطور يوضح ذات التعاليم التى وردت فى رسائل القديس كيرلس ، وقد ختم الخطاب باثنى عشر بنداً من الحرمانات .

هل كان نسطور نسطورياً بحق ؟

تم اكتشاف « كتاب عن هيراقليطس » فى بداية هذا القرن يحوى دفاعاً مسهباً ، كتبه نسطور بعد حوالى ٢٠ عاماً من الصراع الرئيسى، فيه جاهر[١١] بقبوله الفكر اللاهوتى الخاص بالسيد المسيح كما أقره مجمع خلقيدونية[١٢] ، أوجد هذا الكتاب اتجاهاً لدى بعض الدارسين أنه كان أرثوذكسياً وأنه كان ضحية صراعات كنسية سياسية . هؤلاء ينظرون إليه أنه ليس هرطوقياً وإنما يمثل اللاهوت الأنطاكى ، وأنه هو الذى الهب شرارة الصراع بين اللاهوت الاسكندرى واللاهوت الأنطاكى .

١ ــ فى دفاعهم عنه لا ينكرون تصريحاته بأن الله لا يمكن أن تكون له أم[١٣] ، إذ لا يستطيع مخلوق أن يلد اللاهوت ، وأن مريم ولدت إنساناً يحمل اللاهوت ولكن ليس الله ، ويقولون بأن نظريته هذه لم تقم على فهمه المسيح كائنين ، أو كإبنين ، إنما قامت أساساً لتجنب كل احتمال للخلط أو المزج بين الطبيعتين . إنه عارض العبارات التى اعتاد الإسكندريون القول إن الله ولد ومات ، وإن مريم حملت الكلمة الإلهى ، هذا العبارات يحسبها نسطور مُعارِضةً لما اعتاد عليه كل من الكتاب المقدس وقانون الإيمان . هؤلاء الدارسون يعتبرون نظرية نسطور كصدى للنظرية الانطاكية فى مواجهة النظرية الإسكندرية الخاصة بالاتحاد الأقنومى التى أعود لبحثها بأكثر تفصيل .

٢ ــ بمعارضته للنظرية الإسكندرانية ركز نسطور على ناسوت المسيح ، إذ ظن أن الإسكندريين أنكروا وجود نفس المسيح الإنسانية . لقد قال[١٥] إنه لأمرٌ حيوى هام أن يعيش المسيح الحياة البشرية الأصيلة فينمو ويُجرب ويتألم ؛ فلكى يكون الخلاص فعّالاً يلزم أن يكون آدم الثانى إنساناً حقيقياً . غير أن صحة الخبرة البشرية تصير مستحيلة إن كان ناسوت الرب قد انصهر مع لاهوته وغُلب

منه . لهذا فإن الاثنين ، اللاهوت والناسوت يلزم بقاءهما جنباً الى جنب ، كل يحتفظ بخواصه الذاتية وعمله ، لا يصيبه تعطل . كل منهما طبيعة « φύσις » ، (وهو تعبير فى ذهنه[١٦] لا يدل على مجرد مجموعة صفات مجردة ، وإنما تمثل شخصية الشيء بدقة) ، كما أوضح أنه لا يمكن أن يفكر فى طبيعتين مالم تحمل كل منهما شخصيتها « prosôpon » (أى هيئتها الخارجية أو شكلها أو فردها [كفرد]) ، وأقنوميتها (أى كيانها الذاتى القائم). بهذا اقتنع أن كل طبيعة كانت كياناً شخصياً حقيقياً قائماً ، بل إنها حقيقة موضوعية[١٨] .

٣ ـــ رفض نسطور الاتحاد الاقنومى ، قائلاً : [اتحاد الله الكلمة معهما (أى مع الجسد والنفس الإنسانية) ليس أقنومياً ولا طبيعياً بل اختيارى[١٩]] . مع أنه تحدث فى إحدى المناسبات عن الاتحاد (ἕνωσις) لكن التعبير الذى يفضله هو « الارتباط » (συναφεια) الذى يبدو أنه يتجنب اختلاط الطبيعتين أو امتزاجهما .

٤ ـــ طريقته فى وصف الاتحاد أو الارتباط هى القول بأنه يوجد فقط " prosôpon " واحد فى الله ـــ الإنسان ، مستخدماً الكلمة بمعناها العادى الخاص بالفرد من جهة الهيئة او الشكل الخارجى ، إذ يقول : [المسيح هو prosôpon الاتحاد[٢٠]] . لقد ادعى[٢١] بأن كل طبيعة استمرت قائمة بشخصها (prosôpon) كما انها قائمة فى « الاتحاد الشخصى prosôpon of union » ، أو « البروسوبون العام »] .

الآن انقسم الدارسون المحدثون فيما بينهم بطريقة عنيفة[٢٢] . غير أن هذا الاتجاه ليس جديداً فقد وجد نسطور الكثير من اللاهوتيين والكنسيين من يسندوه بسبب قبوله طومس لاون ومدحه له ، وذلك كما سنرى عند دراستنا : « القديس ديسقورس والأوطاخية » .

يرى[٢٣] Tixeront أن نسطور كان هرطوقياً ، لكن مدرسة انطاكيا هى المسئولة عن ذلك . كان القديس كيرلس على حق فى الإشارة إلى ديؤدور (رئيس مدرسة أنطاكية) كسابق لنسطور أعدّ له . فى غيرته لتحقيق تكامل الطبيعتين

فى المسيح يسوع ضد الأبولليناريين ، أكدَّ ديؤدور التمايز بين ابن الله وابن داود ، حيث الأول اتخذ الثانى وسكن فيه[٢٤] . لذلك فإنه فقط من قبيل المجاز ولأن ابن داود صار خيمة للوغوس ، يمكننا القول بأن اللوغوس ، ابن الله هو ابن داود . لكنه هو ليس ابن داود ، هو ربه ؛ إنه ليس ابن مريم[٦] ... لذلك فالمولود من مريم هو ابن الله ليس بالطبيعة بل بالنعمة ، الكلمة وحده هو هكذا بالطبيعة[٢٧] . هكذا يبلغ Tixeront إلى النتيجة التالية : [ربما أكَّد — على الأقل بالكلام — وحدة الشخص[٢٨] ، وبالتأكيد تطلع إلى الإنسان فى يسوع أنه مستحق للعبادة مع الكلمة . لكن ، بالرغم من سعيه هذا على الاحتفاظ باللغة السائدة وتبريرها ، من الواضح جداً أن الكثير من افتراضاته لا يمكن قبولها وأنه بينما يحاول تأكيد عدم اختلاط الطبيعتين فى المسيح يفصل بينهما ويعزلهما عن بعضهما البعض بطريقة خاطئة[٢٩]] .

أيضا ينظر إلى ثيؤدور تلميذ ديؤدور بوجه عام على أنه نسطورى بحق ، أى الموضح لنظرية الهرطقة التى حملت اسم بطريرك القسطنطينية[٣٠] . يقدم Tixeront اقتباسات كثيرة لثيؤدور يؤكد فيها اتحاد الطبيعتين ، الا أنه خرج بهذه النتيجة: [الآن بالرغم مما قاله فعلى العكس جاءت عبارات ثيؤدور تُظهر بوضوح أنه يعتقد بإبنين فى يسوع المسيح كما بربين . فبينما توجد بنوة واحدة وربوبية واحدة أساسية فى الكلمة ، قد بُنيت وشوركت فى يسوع ، يوجد موضعان للربوبية والبنوة[٣١]] .

الآن بخصوص نسطور فقد اعتاد أن يكرر العبارة : [توجد طبيعتان فى شخص (بروسبورون) واحد] ؛ فماذا يعنى بكلمة prosôpon ؟

مثل ثيؤدور يبدو انه هنا وهناك كان يتطلع إلى الإتحاد مجرد التصاق كرامة وقوة وسلطان كإمتيازات فائقة صنعتها الطبيعة الإلهية أو صنعها اللوغوس لناسوته[٣٣] .

لقد فشل فى تقديم اتحاد شخص المسيح بطريقة كافية ، وأن يقدم النتائج الضرورية لهذا الاتحاد[٣٤] . فمن كلماته :

[عندما أراد الكتاب المقدس أن يشير إلى ميلاد المسيح من العذراء الطوباوية أو إلى موته لم يقل « الله » إنما يقول « المسيح » أو « الابن » أو « الرب » ، لأن هذه الألقاب يمكن استخدامها للطبيعتين معاً ، أو لطبيعة أو أخرى[٣٥]] .

[... مع أنه واحد لكنه اثنان لا فى الكرامة بل فى الطبيعة[٣٦]] .

[بقيت الطبيعتان فى شخصيتيهما (prosopôns) وفى طبيعتيهما ، وفى « بروسوبون الاتحاد »[٣٧]] .

[يستخدم اللاهوت شخصية (بروسوبون) الناسوت ، وأيضا الناسوت يستخدم بروسوبون اللاهوت[٣٨]] .

[هل أنا وحدى الذى أدعو المسيح « اثنين » ؟ ألم يُعَرِّف نفسه بأنه الهيكل الذى يمكن أن يُنقض وأنه إله سيقوم ؟[٣٩]] .

مجمع أفسس

فى ٢٢ يونيو سنة ٤٣١ م ، انعقد المجمع المسكونى الثالث فى أفسس ، حيث كان القديس كيرلس رئيساً للمجمع . افتتح المجمع دون انتظار الأساقفة السريان تحت رئاسة يوحنا الأنطاكى الذى شكل فريقاً متعاطفاً مع نسطور ، وأيضا قبل وصول نواب كليستين أسقف (بابا) روما .

فى البداية قُرِىء قانون الإيمان النيقوى ثم رسالة القديس كيرلس الثانية لنسطور (رسالة ٤)، وإجابة الأخير عليه . أدينت الإجابة بواسطة بعض الأساقفة وأُعلن الحرمان ضد البطريرك . تليت بعد ذلك رسالة كليستين ورسالة المجمع الرومانى لكيرلس (رسالة ١٢) والرسالة المجمعية لكيرلس ومجمع الأساقفة المصريين (رسالة ١٧) : وأخيراً مقابل مقتطفات آبائية عن التجسد[٤٠] نُظِّم ٢٠ مقتطفا من كتابات نسطور[٤٠] .

عُزل نسطور من كرسيه وحُرم .كما أُدينت تعاليمه ، وثُبِّت قانون إيمان نيقية ، وصدرت موافقة رسمية على لقب « ثيؤتوكوس » .

بجانب هرطقة نسطور ناقش المجمع البيلاجية التى نادت بأن الإنسان يقوم بالدور الأساسى والرئيسى فى الخلاص خلال جهاده الذاتى مستقلاً عن النعمة الإلهية .

مجمع مضاد

وعندما حضر يوحنا الأنطاكى وفى صحبته ثيؤدورت أسقف قورش وأساقفة آخرون أقيم مجمع منافس تقرر فيه حرمان القديس كيرلس وميمنون أسقف أفسس وعزلهما من كرسيهما بتهمة استخدام العنف مع الهراطقة . قام ٤٣ أسقفاً بتوقيع القرار الذى سلم للأباطرة والأميرات والكهنة والأشراف وأعلن على شعب القسطنطينية[٤١] .

كان لكل فريق من يناصره فى البلاط ، فكان الإمبراطور فى حيرة لم يعرف أى الفريقين يناصر . لذلك وُضع القديس كيرلس فى السجن لمدة شهرين ثم سُمح له بعد ذلك بالعودة إلى كرسيه ، أما نسطور فنفى فى مصر حيث مات فى صعيد مصر . وإلى اليوم يوجد تل يدعى « تل نسطور » ، حيث فيه دفن وقد اعتاد المصريون أن يلقوا حجارة على قبره فصار تلًا .

تمت مصالحة نهائية بين يوحنا وكيرلس عام ٤٣٣ م ، أما النزاع بين اللاهوت الأنطاكى والإسكندرى فتوقف مؤقتا ليظهر فى صورته المتطرفة فى مجمع خلقيدونية عام ٤٥١ م .

إعادة الاتحاد عام ٤٣٣

استخدم الإمبراطور نفوذه الشخصى فى إعادة استقرار السلام بين القديس كيرلس ويوحنا الأنطاكى ، إذ كان كل منهما يمثل اتجاهاً لاهوتياً معيناً . أرسل يوحنا بولس أسقف Emesa إلى الإسكندرية يحمل معه أوراقا رسمية لكيرلس و « اعتراف إيمان » كأساس للمصالحة . قبله القديس كيرلس ، وبعث رسالته الشهيرة إلى أنطاكية ، وتسمى « Laetentur caeli[٤٢] » أى « صيغة إعادة الاتحاد لعام ٤٣٣ » . بهذا عولجت المشكلة من الظاهر ، أما « إعادة الاتحاد » نفسه فقد فهمه كل من الطرفين (الإسكندرية وانطاكية) بطريقة مختلفة .

فى الواقع هذه الصيغة الخاصة بإعادة الاتحاد لم تُشبع الطرفين . فقد قبلها القديس كيرلس لمجرد أن الأنطاكيين يقبلون مجمع أفسس (٤٣١ م) بدون شروط ، فقد أبرز هذه النقطة بوضوح فى رسائله إلى أكاكيوس أسقف Melitene وڤاليريان أسقف أيقونية وساكسينوس أسقف قيصرية الجديدة . كتب إلى أكاكيوس بأن إعادة الاتحاد كان مجرد محاولة من أجل سلام الكنيسة[٤٤] ، وفى رسائله الى أكاكيوس وڤاليريان وساكسينوس يدافع القديس كيرلس عن نفسه لقبوله إعادة الاتحاد موضحاً أن الأنطاكيين قد أثاروا ثلاثة اعتراضات على مجمع أفسس هى :

١ ــ أن لاهوتيات كيرلس كما جاءت فى كتاباته ــ خاصة الاثنى عشر حرمانا ــ هرطوقية .

٢ ــ نسطور ليس هرطوقياً ، وإدانته غير عادلة .

٣ ــ مجمع أفسس أعلن أن الكتابات الأولى (كتابات كيرلس) أرثوذكسية ، وأنه ضاد الثانية (كتابات نسطور) كهرطوقية .

الآن يمكننا أن ندرك لماذا قبل القديس كيرلس إعادة الاتحاد .

هذا والأنطاكيون أيضا من جانبهم لم يرضهم إعادة الاتحاد تماماً ، فكثيرون منهم أثاروا أناساً فى كراسى رئيسية لمهاجمة عبارات الإسكندرية الخاصة بلاهوتيات السيد المسيح . نذكر على سبيل المثال أن ثيؤدورت قَبِل إعادة الاتحاد لكنه فى نفس الوقت رفض حرمان نسطور .

جاء فى نص إعادة الاتحاد بعد المقدمة[٤٥] :

[نعترف ــ لذلك ــ أن ربنا يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد ، إله كامل وإنسان كامل ، له نفس عاقلة وجسد ، مولود من الآب قبل الدهور من جهة لاهوته ، هو بعينه فى الأيام الأخيرة من أجلنا ومن أجل خلاصنا ولد من العذراء مريم من جهة ناسوته . هو بعينه واحد فى الجوهر مع الآب من جهة لاهوته ،

وواحد معنا من جهة ناسوته ؛ من (of) الطبيعتين صار الاتحاد . لهذا نعترف بمسيح واحد ، ابن واحد ورب واحد .

في تناغم مع هذا المعنى من جهة الاتحاد دون اختلاط ، نعترف أن القديسة العذراء هى « والدة الإله » ، لأن الله الكلمة تجسد وتأنس ، وفى لحظة الحَبَل ذاتها أخذ لنفسه هيكلًا منها . وعن التعبيرات الخاصة بالرب فى الأناجيل والرسائل نحن نعلم أن اللاهوتيين يدرك بعضهم ما هو مشترك بخصوص شخص (المسيح) الواحد ، وآخرون يميزون بين الطبيعتين موضحين ما هو لائق بالطبيعة الإلهية حسب لاهوت المسيح ، وما هو متواضع حسب ناسوته] .

كتاباته

تعتبر كتابات القديس كيرلس من أعظم ما ورد فى الأدب المسيحى المبكر ، فهى تكشف عن عمق فى الفكر وغنى فى الآراء وتحمل براهين ثمينة وواضحة تؤكد ما للكاتب من قدرة على البصيرة والجدل تجعل كتاباته من المصادر الأولى لتاريخ العقيدة والتعليم الكنسى .

كرّس كتاباته للتفسير والجدل ضد الأريوسيين حتى سنة ٤٢٨ م ، بعد هذا تحولت بالكامل لتفنيد الهرطقة النسطورية .

١ ـــ تعليقات على العهد القديم :

ا ـــ ١٧ كتاباً عن « العبادة والسجود لله بالروح والحق » ، قدمت فى شكل حوار بين القديس كيرلس وبالاديوس المفسر الرمزى لعبارات معينة مختارة من أسفار موسى الخمسة .

كتاب ١ : خطية آدم وحواء ، وخلاص الإنسان من عبودية الخطية والشيطان .
٢ ، ٣ : التبرير بالمسيح .
٤ ، ٥ : ثبات الإرادة البشرية للجهاد وإصلاح البشرية .
٦ : محبة الله كأساس لخلاصنا .

٧ ، ٨ : وأيضا محبة القريب .
٩ــ١٣ : الكنيسة والكهنوت .
١٤،١٥ : العبادة الروحية للمسيحيين ، سبق فأعلن عنها خلال ظلال دساتير العهد القديم .
١٧ : أعياد اليهود ، خاصة الفصح .

ب ــ جلافيرا Glaphyra : ١٣ كتاباً تضم تفسير لعبارات منتخبة من أسفار موسى الخمسة .

جـ ــ تعليقات على إشعياء .

د ــ تعليقات على الأنبياء الصغار .

٢ ــ تعليقات على العهد الجديد :

ا ــ تعليقات على إنجيل يوحنا .
ب ــ تعليقات على إنجيل لوقا .
جـ ــ تعليقات على إنجيل متى .

٣ ــ كتابات عقيدية جدلية ضد الأريوسيين :

ا ــ كنز الثالوث القدوس المتحد جوهرياً Thesaurus de Sanc. et Cons. Trin.

ب ــ عن الثالوث القدوس المتحد جوهرياً .

٤ ــ كتابات عقيدية جدلية ضد النساطرة :

ا ــ ضد نسطور المجدف .
المقالات الأولى ضد نسطور : « خمس رسائل (طومس) ضد نسطور ، وضعها فى ربيع سنة ٤٣٠ م .

ب ــ عن الإيمان الحقيقى .
جـ ــ الاثنا عشر أناثيما ضد نسطور .

د ــ دفاع الدى الإمبراطور : وهو دفاع قدمه للإمبراطور ثيؤدوسيوس الثانى بعد الإفراج عن كيرلس مباشرة وعودته إلى الاسكندرية ، فيه يبرر تصرفاته قبل مجمع أفسس وأثناء انعقاده .

هـ ــ عن تجسد الابن الوحيد : وضعه بعد سنة ٤٣١ م يعطى فى البداية توضيحاً للألقاب : المسيح ، عمانوئيل ، يسوع ، ثم يقدم تعريفاً للاتحاد الأقنومى بكونه مضادا للاختلاط وللمصاحبة الخارجية فقط .

و ــ ضد الذين لا يعرفون مريم والدة الإله .

ز ــ ضد ديؤدور وثيؤدور (معلمى نسطور) .

ح ــ حوار حول وحدة شخص المسيح .

٥ ــ دفاع ضد يوليانوس مقدم لثيؤدسيوس الثانى :

٦ ــ رسائل فصحية : يخبرنا يوسابيوس أن « ديونسيوس كتب رسائل العيد التى فيها يرفع صوته ليعلن عن عيد القيامة بوقار » . هذه الرسائل الفصحية التى لديوناسيوس تعتبر أول عينة بين أيدينا ، وقد استمرت الإسكندرية على هذا التقليد ، فلدينا رسائل فصحية للقديسين أثناسيوس ، وبطرس الإسكندرى وكيرلس .

٨ ــ عظات : لا يوجد حالياً أكثر من ٢٢ عظة من كل عظاته .

٩ ــ الرسائل .

شخصيته

١ ــ باستثناء نظرية فى مشكلة القديس يوحنا الذهبى الفم ، يرى كثير من الدارسين الغربيين أنه صورة طبق الأصل لخاله ثيؤفيلس[٤٧] . فقد قصد خاله أن يجعله خلفاً له . يمكننا أن نحدس بأنه قد أعده لهذه الرتبة العظيمة فأعطاه أساساً راسخاً فى دراسة الكتاب المقدس بواسطة أناس مسئولين مسيحيين على مستوى علمى مرتفع لأجل المستقبل . تأثيره على كيرلس كان عميقاً وراسخاً ، لهذا بقيت سياسته امتداداً لسياسة خاله . حمل مثل خاله تقدير الرهبان له ، كما عمل

بذات الغيرة المتقدة ضد الوثنية والهرطقات ، وأيضا نبذ أساقفة عاصمة الشرق له لتدخله فى شئونهم .

٢ ــ بسبب غيرته المتقدة فى الكرازة بالمسيحية وتنقيتها من كل هرطقة يصفة بعض الدارسين القدامى والمحدثين بالقسوة والعنف ، بينما نقرأ كلماته(٤٨) :

[إننى أعيش فى سلام ، ليس شيء أمقته مثل الخصومات والمنازعات . إنى أحب كل إنسان ، وإن استطعت أربح كل واحدٍ من الإخوة بترك ممتلكاتى وما هو لى . إنى أود أن أفعل هذا بكل فرح فإننى أقدِّر الوفاق كل التقدير ... لكن يوجد تساؤل من جهة الإيمان أو عثرة تمس كنائس الإمبراطورية الرومانية كلها ... فإن التعليم المقدس قد عُهد به إلىّ ... فكيف نعالج هذه الشرور ؟ ... إننى مستعد أن احتمل كل لوم بهدوء ، أحتمل كل إهانات وأضرار بشرط ألّا يُمَسَّ الإيمان . إننى مملوء حباً نحو نسطور ، ليس من يحبه مثلى ...].

بسبب موهبته الممتازة فى تفنيد الهرطقات أبغضه الهراطقة ، خاصة النساطرة . جاء فى أعمال مجمع خلقيدونية أن ثيؤدوريت اقترح أن يوضع حجر ضخم وثقيل على مقبرة كيرلس لئلا يثير الأموات فيردوه ثانية(٤٩) .

اللاهوت عند القديس كيرلس

١ ــ منهجه اللاهوتى

ا ــ فى منهجه استخدم الشهادات الآبائية مع الكتاب المقدس بطريقة فنية رائعة وكاملة . لقد دعى نفسه : « محب التعليم السليم ، السالك على أثر خطوات الآباء التقوية(٥٠) » .

ب ــ إذ اعتاد الأريوسيون على استخدام براهين عقلية ، استخدم ذات وسيلتهم للرد عليهم .

جـ ــ يقول ويكهام : [يمكننا أن نقول بان ثقافة كيرلس جعلته ذا تأثير عميق ، فكان لاهوتياً مثقفاً مع معرفة مهوبة للكتاب المقدس ، يستطيع أن يناضل بفيض فى مناقشات التثليث العويصة . هذه الثقافة لم تعطه حب

استطلاع عقلانى ... حقاً اعطته معتقدات راسخة كالهرم ، فلا يغيّر كثيراً فى طريقة تعبيراته عبر السنوات[٥١] . وكيرلس مدين بالقليل وبطريقة مباشرة للثقافة العلمانية . مَنْ مِنَ الكتاب المسيحيين كان له تأثيره الأعظم عليه ؟ من الواضح أنه مدين لأثناسيوس ، حتى إن عمله المبكر « ... Thesaurus de sancta et » (كنز فى الثالوث القدوس المتحد جوهرياً) فى خطوطه الرئيسية مأخوذ عن مقالات أثناسيوس ضد الأريوسية[٥٢] ...

٢ ــ لاهوتياته الخاصة بالسيد المسيح Christology

فى كتاباته الأولى ضد الأريوسية كان يكرر ذات اتجاهات أثناسيوس وتعبيراته . فى سنة ٤٢٩/٤٣٠ م كرس كيرلس نفسه للبحث العميق فى التعليم الخاص بشخص السيد المسيح ليعد نفسه لتفنيد نسطور . لقد أعلن أن الكلمة صار إنسانا لكنه لم يتخذ إنسانا (كشخص آخر)[٥٣] . لقد علّم بالاتحاد الأقنومى للوغوس والجسد الذى اتحد به[٥٤] . مؤكداً هذا الاتحاد الفريد ومقدماً فى تفصيل نتائجه ، التى يمكن تلخيصها فى النقاط التالية :

ا ــ **ضرورة الإتحاد الأقنومى** : يقول القديس كيرلس : [إن رذلنا هذا الاتحاد الأقنومى بكونه مستحيلًا أو غير لائق نسقط فى خطأ إذ نجعل منه ابنين[٥٥] .]

ب ــ **الاتحاد الأقنومى والتعبيرات النسطورية** : يصر القديس كيرلس على تعبير « الاتحاد الأقنومى » ، رافضاً التعبيرات التى استخدمها نسطور إذ دعى اتحاد الطبيعتين (اللاهوت والناسوت) « سكنى » (حلول) ، أو « التصاق » أو « شركة قوية » ، حاسباً هذه التعبيرات غير كافية ، إذ يقول :

[نحن لا نقول بأن كلمة الله سكن فى ذاك الذى ولد من القديسة العذراء كما لو كان فى إنسان عادى ، لئلا يُظن أن المسيح إنسان لاهوتى ملهم[٥٦] ، فإنه وإن كان الكلمة قد حلّ بيننا (يو ١:١٤) ، وقد قيل إن ملء اللاهوت حلّ فى المسيح جسدياً (كو ٢:٩) ، إلا أننا نعلم أنه إذ « صار جسداً » لا يعنى هذا « سكنى » للكلمة فيه بنفس الطريقة التى بها يسكن فى القديسين ، وإنما تم

اتحاد للطبيعتين دون أن يتحول إلى جسد ، إنه حلَّ كما يقال عن النفس فى علاقتها بجسدها .

إذن ، يوجد مسيح واحد ، ابن واحد ، رب واحد ، ليس كما لو كان إنساناً له التصاق بالله له اتحاد على مستوى الكرامة أو السلطان ...

علاوة على هذا فإننا لا نفهم طريقة الاتصال بأنها مقاربة جنباً الى جنب ، إذ هذا لا يكفى ليعبر عن اتحاد الطبائع .

ولا نفهم الاتحاد على أنه نوع من الشركة وذلك كما نرتبط نحن بالرب ، إذ مكتوب أننا نصير معه روحاً واحداً (١ كو ٦:١٧) ، بل بالحرى نرفض تعبير « اتصال » تماما لعجزه عن تحديد الاتحاد(٥٧) .]

لقد فهم القديس كيرلس التعبيرات النسطورية الخاصة بالاتحاد أنها تفترض التصاقاً خارجياً مجرداً بين الكلمة وإنسان عادى . وبهذه النظرة يصير التجسد وهماً مجرداً أو « مظهراً » أو « كلمات جوفاء »(٥٨) . الخلاص بهذا قد خُرب ، إذ يفترض أن آلام المسيح وأعماله الخلاصية ليست خاصة بالله المتجسد وإنما خاصة بإنسان مجرد(٥٩) . بنفس الطريقة يرى أن الحبل بالمسيح بكونه آدم الثانى الذى أقيم من جديد لتجديد الطبيعة الإنسانية يتطلب اتحاداً بين الكلمة والجسد أكثر ألفة مما ادعاها نسطور .

جـ ــ **الاتحاد الأقنومى والثنائية النسطورية** : يكرر القديس كيرلس تأكيده للاتحاد الأقنومى كعمل مضاد للثنائية النسطورية إنه لا يتردد فى القول بأننا متروكون فى جهل . وأن أعماق اتحاد يسوع المسيح يفوق إدراكنا ولا يمكن النطق به(٦٢) . إنه يُعلِّم أن الاتحاد قد بدأ عند الحبل بيسوع . إنه ليس بإنسان الذى وُلد من مريم ، بل كلمة الله المتأنس . [إذ لم يولد من القديسة العذراء أولا إنسان عادى ، وبعد ذلك حل عليه الكلمة ، وانما اتحد (بالجسد) وهو فى الرحم ، ووُلِدِ الكلمة جسدياً ، ناسباً لنفسه ميلاد الجسد(٦٣)] .

لقد أكّد أن الناسوت فى الاتحاد ليس شخصاً ، ليس لأنه إنسان غير كامل ،

وإنما لأن الناسوت لم يوجد قط منفصلًا عن الكلمة ، لم يوجد الناسوت قط بذاته ، ولا ينتسب لذاته ، بل ينتسب للكلمة الذى صيّره له(٦٤) .

د ــ **الاتحاد الأقنومى بدون اختلاط** : يؤكد القديس كيرلس أن هذا الاتحاد الأقنومى للطبيعتين تحقق دون امتزاج أو تغيير أو اختلاط ، إذ يقول :

[إذ نتبع اعترافات الآباء القديسين فى كل نقطة رتبوها تحت قيادة الروح القدس المتكلم فيهم ، ونتمسك بنيتهم سالكين الطريق الملوكى ، نؤكد أن الابن الوحيد الجنس كلمة الله مولود من ذات جوهر الآب ... نزل من أجل خلاصنا ، بنزوله أخلى ذاته ، فتجسد وتأنس ، بمعنى أنه أخذ جسدا من العذراء البتول ، وجعله له وهو فى الرحم . وهبنا أن يولد مثلنا ، ويصير كإنسان مولوداً من امرأة ، دون أن يترك ما هو عليه بل هو باقٍ كما هو حتى حينما أخذ جسداً ودماً ، وما كان عليه بكونه الله بالطبيعة والحق .

إننا نعلن أن الجسد لم يتحول إلى طبيعة إلهية ، ولا طبيعة الله الكلمة التى لا توصف قد انحطت إلى طبيعة الجسد ، لأنه هو غير متغير ولا يتحول ، بل يبقى كما هو كما تقول الكتب المقدسة (يو ٨:٣٥ ، ١٠:٣٠ ؛ مت ٣:٦ ...(٦٥)] .

يبدو أن القديس كيرلس اتهمه بعض مقاوميه بأنه اعتقد باختلاط الطبائع بتأكيده للاتحاد الأقنومى و « الطبيعة الواحدة » (طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد). على أى الأحوال كتب القديس إلى يوحنا الأنطاكى (فى ٢٣ ابريل) :
[ليت قداستكم تتعطف بغلق أفواه القائلين بالامتزاج أو الاختلاط أو دمج الله الكلمة مع الجسد ، إذ يبدو أن البعض ينشرون أننى متمسك بذلك أو أقول هذا . حاشا لى أن أعتقد بشيء من هذا إذ أحسب هذا نوعاً من الجنون . من يتخيل « ظل دوران » يع ١:٧ يمكن أن يحل بطبيعة الكلمة الإلهى ...(٦٦)].

يقول Kelly : [يشير (القديس كيرلس) إلى اللاهوت والناسوت أنهما مختلفان تماماً فى الجوهر ؛ وبينما استبعد الاتحاد أى تفريق لكنه لم يلغ الاختلاف بينهما . على العكس ، فإنه وإن كان « اللهالإنسان » « طبيعة واحدة » ، فإن كل عنصر

فى كيانه يبقى محتفظاً بخواصه الطبيعية(٦٨) . كل اقتراح بأن اختلاف الطبائع قد زيل بالاتحاد يجب أن يرفض(٦٩)].

هـ ـــ الاتحاد الأقنومى وعبادة المسيح : يقول القديس كيرلس : [بالاعتراف أن الكلمة متحد بالجسد أقنومياً ، نعبد ابنا واحدا ، ربا واحدا ، يسوع المسيح ، دون فصل الإنسان عن الله كما يقول الذين يجعلون الاتحاد هو فى الكرامة والسلطان وبغير تأكيد الإتحاد فيدعون كلمة الله « المسيح » بمعنى غير المعنى الذى يدعون به المولود من المرأة أيضا « المسيح » ، إنما نحن نعرف كلمة الله الآب بجسده الخاص به مسيحاً واحداً وحيداً . عندئذ مُسح بشرياً معنا مع أنه واهب الروح القدس بغير قياس للذين يستحقون قبوله ، كما يقول الإنجيلى يوحنا (يو ٣:٣٤)(٧٠)] .

القديس كيرلس الذى يؤكد الاتحاد الأقنومى يرفض تكريم ناسوت المسيح من اجل لاهوته أو جنباً إلى جنب مع لاهوته ، فإن هذا يوحى بالانفصال ويجعل منه مسيحين . إنما نحن نقدم عبادة « منفردة » للمسيح الواحد الذى هو كلمة الله المتجسد . إنه يقول : [إننا نرفض القول عن المسيح : « أعبد المملوك من أجل المالك ، أكرم المنظور من أجل غير المنظور » إنه لأمرٌ مرعب أن يضاف إلى ذلك القول بأن « ما قد أُخذ (الجسد) يدعى الله بجانب من أخذه » . هذا القول يفرقه إلى مسيحين ، يضع الإنسان منفصلاً عن الله(٧١)] .

و ـــ الاتحاد الاقنومى والذبيحة الإلهية : كنتيجة للاتحاد الأقنومى للطبيعتين فى طبيعة واحدة بلا تغيير ولا اختلاط ، يمكن نسب آلام يسوع وصلبه ودفنه للكلمة المتجسد . بهذا تتحقق الذبيحة الإلهية ويصير خلاصنا ممكناً . يقول القديس كيرلس : [نحن نؤمن أيضا أن الابن ذاته المولود من الله الآب ... وإن كان بطبيعته لا يتألم ، فإنه قد تألم حسب الجسد ، كما جاء فى الكتب المقدسة ، وصار قابلاً للآلام خلال جسده المتألم ، جاعلاً آلام جسده آلامه . إنه « يذوق بنعمة الله الموت لأجل كل أحد » عب ٢:٩ ، خاضعاً جسده للموت مع أنه هو فى الأصل وبالطبيعة « الحياة » و « القيامة » ... نحن نقدس خدمة الذبيحة غير

الدموية فى الكنائس ، وبهذا ندنو من البركات السرّية ونتقدس خلال اشتراكنا فى الجسد المقدس والدم الكريم اللذين للمسيح مخلصنا جميعاً ، فلا نتقبل جسداً مجرداً ، حاشا لله ، ولا جسد إنسان تبارك بالاتصال بالكلمة فى نوع من اتحاد الكرامة ، أو بكونه صار الله ساكناً فيه ، بل بكونه واهب الحياة بحق ، وذات جسد الكلمة . فكما أن الله هو الحياة بالطبيعة ، عندما صار واحداً مع جسده ، جعل جسده واهب حياة . لهذا يقول لنا : « الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه » يو ٦:٥٣ ، لكننا لا نحسب هذا جسد إنسان عادى ... بل صار بالحق جسده هو ، ذاك الذى من أجلنا صار (جسداً) ودعى ابن الانسان[٧٢]] .

فى رأى القديس كيرلس[٧٣] أن نسطور نزع عن الأفخارستيا قوة « وهب الحياة » ، وحوله إلى أكل لحوم بشر ، إذ فى فروضه أنه مجرد جسد إنسان موضوع على المذبح ، وأن الجسد الذى يأكله المؤمنون ليس بالحق مُحيَّياً باللوغوس[٧٤] .

٣ ــ قبل القديس كيرلس مثل القديس أثناسيوس « تبادل الأتعاب والخواص Communicatis idiomatum »، قائلًا بأن جسد المسيح يشارك الكلمة القابه وخواصه ، وأيضا العكس . بمعنى آخر من الضرورى أن ننسب لشخص الكلمة المتجسد الأعمال والأحاسيس والخواص التى للاهوت والناسوت . بحق يقال : [كلمة الله تألم حسب الجسد ، وصار بكر الراقدين[٧٥]] ، [لذلك يلزمنا أن نعترف بأن الكلمة قدم مجد عمل اللاهوت لجسده ، وفى نفس الوقت نسب لنفسه ما يخص الجسد[٧٦]] .

على أى الأحوال لم يفشل القديس كيرلس فى أن يُظهر أن هذه الطريقة فى الحديث قانونية ، فقط إن راعينا أن اللاهوت والناسوت « فى الاتحاد[٧٧] » ، لأن اللاهوت نفسه لم يتألم ؛ وإذ كلمة الله هكذا لم يولد من العذراء الطوباوية ، ولا أُلقى القبض عليه ولا ربط ولا جُرح ولا مات خلال الآلام ؛ إنه غير قابل للألم ، وذلك كاللهيب الذى فيه توجد قطعة حديد ملتهبة حمراء ، فالحديد بالحق يتأثر مما يلمسه وليس اللهيب[٧٨] .

٤ ـــ إذا استخدم القديس كيرلس تعبير « ميّلفيزيس (الطبيعة الواحدة) » ظن كثير من الدارسين أنه اقتبسها عن كتابات أبوللينارية كما لو كانت تعبيراً للقديس أثناسيوس . لكنهم يؤكدون أنه ليس أبوللينارياً . يقول Kelly [لقد عنى(٧٩) بكلمة « جسد » الطبيعة البشرية بكمالها ، بما تحويه من نفس عاقلة ؛ لقد فند الأبوللينارية . ناسوت (السيد) كان حقيقياً وأكيداً(٨٠)] .

طبيعة المسيح الواحدة (ميّا فيزيس)

استخدم القديس كيرلس التعبير : « طبيعة متجسدة واحدة لله الكلمة » ، كأداة لحفظ إيمان الكنيسة بخصوص شخص يسوع المسيح ، خاصة من النسطورية . وقد سبق لى شرح هذا التعبير فى كتاب « طبيعة المسيح حسب مفهوم الكنيسة الأرثوذكسية غير الخلقيدونية » . هنا أود التركيز على النقاط التالية :

١ ـــ هذا التعبير أثناسيوسى ، بل هو تعبير الكنيسة التقليدى ، الذى به تؤكد الكنيسة الاتحاد الأقنومى دون انفصال ولا اختلاط .

٢ ـــ استخدم أبوليناريوس هذا التعبير(٨١) ، لهذا أُتهم القديس كيرلس أحيانا بواسطة خصومه بأنه أبوللينارى(٨٢) ، لكنه كان بعيداً كل البعد عن النظام اللاهوتى الأبوللينارى(٨٣) .

٣ ـــ تعبير القديس كيرلس « ميافيزيس » يختلف عن « الطبيعة الواحدة » لأوطيخا . فقد أكّد القديس كيرلس الطبيعة المتحدة « من طبيعتين(٨٤) » بدون اختلاط ، بينما اعتقد أوطيخا بان ناسوت المسيح قد أبتُلِع وفُقِدَ تماماً .

٤ ـــ اعتقد القديس كيرلس فى « الطبيعة المتحدة من طبيعتين » ، معلناً ذلك بوضوح ومكررا هذا بتفصيل فى رسالتيه إلى ساكسينسوس أسقف قيصرية الجديدة ، حيث نلاحظ فيها الآتى :

ا ـــ يفند فى هاتين الرسالتين عقيدة ديؤدور « فى الطبيعتين » ، التى سببت ثنائية فى شخص يسوع المسيح . يؤكد القديس كيرلس أن يسوع

المسيح هو المسيح الواحد بعينه ابن الله الذى صار جسداً . كان القديس كيرلس ذا ثقافة عالية فى الأدب اليونانى ، ويعرف أن يميز بين « فيزيس » و « إيبوستاسيس » ؛ فلم تكن كلمة « فيزيس » تعنى مجرد سمات معينة للكائن ، إنما ترتبط تماماً بجوهره . لذلك إن تكلمنا عن طبيعتين للمسيح فهذا يعنى وجود شخصين ، كما فعل ديؤدور وتلميذه نسطور . كان يصعب جداً على القديس كيرلس أن يقبل « الطبيعتين » من أجل دفاعه ضد النساطرة ، إذ يقول :

[نحن لا نحطم الاتفاق فى الوحدة باعلاننا أنها تمت « من (of) طبيعتين » ، على أى الأحوال بعد الاتحاد لا نفرق الطبيعتين الواحدة عن الأخرى ، ولا نقسّم الواحد غير المنظور الى ابنين ، بل نقول « الابن الواحد » ، وكما وضع الآباء « طبيعة متجسدة واحدة للكلمة[٨٥]] .

ب ــ يوضح القديس كيرلس وحدة الطبيعتين فى طبيعة واحدة بالإنسان نفسه الذى يتكون من جسد ونفس ، من طبيعتين مختلفتين لكننا نؤمن أن لنا طبيعة بشرية واحدة متحدة[٨٦] .

جـ ــ فند القديس كيرلس اتهامات نسطور ضد « الطبيعة المتجسدة الواحدة للكلمة » ، مظهراً أن هذه العقيدة لا تعنى أن الله تألم فى طبيعته الذاتية[٨٧] ، ولا أن نوعاً من الاندماج أو الامتزاج حدث بين اللاهوت والناسوت ، أو أن الناسوت قد فُقد[٨٩] .

هنا ، نشير إلى إساءة فهم الكنائس الخلقيدونية لنا ، إذ يظنون أننا « مُنوفيزيت » أى أصحاب الطبيعة الواحدة كما لو كنا أوطاخيين . فى العشرين السنة الماضية انعقدت عدة مؤتمرات لإقامة صيغة إيمان تستريح لها الكنائس الخلقيدونية وغير الخلقيدونية بخصوص طبيعة المسيح ، تعلن عن اقتراب مفاهيم الفريقين بالرغم من اختلاف التعبيرات .

الماريولوجى (المريميات)

يؤكد القديس كيرلس استخدام لقب « ثيؤتوكوس » أى « والدة الإله » للقديسة مريم كعلامة عن الإيمان الأرثوذكسى ، بأن يسوع المسيح الذى ولد

وصُلب هو بالحقيقة ابن الله المتجسد . هذا التعبير « ثيؤتوكوس » استخدمته مدرسة الإسكندرية قبل القديس كيرلس بزمن طويل . هذا والترجمة الانجليزية والعربية « والدة الإله » تعطى امتيازاً للتفكير فى مجد أمومتها ، بينما التعبير اليونانى « ثيؤتوكوس » يركز الانتباه بالأكثر على لاهوت ذاك الذى حملته(٩٠) . إنكار أنها « ثيؤتوكس » بالحقيقة هو إنكار أن الذى ولدته هو الله المتجسد . بدأ القديس كيرلس « حروماته » الاثنى عشر هكذا : [من لا يعرف عمانوئيل إنه بحق هو الله وبالتالى تكون العذراء القديسة هى « ثيؤتوكوس » ، إذ قدمت الميلاد الجسدى لكلمة الله ، يكون محروماً (أناثيما)] .

لقد كرس مقالين بأكملهما للدفاع عن لقب « ثيؤتوكوس » ، بجانب تقديم نصيب وافر فى كل أعماله لهذا الهدف ، نذكر على سبيل المثال ، كتابه الأول لعمله : « ضد نسطور المجدف » ، وأيضا الجزء الأول من عمله « De recta fide ad regnias »(٩١) .

مقتطفات من كتابات القديس كيرلس

+ ابتلع الموت « الحمل » لأجلنا جميعاً ، وبعد ذلك تقيأنا كلنا فيه ومعه . لأننا نحن جميعنا كنا فى المسيح الذى مات وقام لحسابنا ولنفعنا .

+ ما كان يمكن لشخص واحد أن يكون فى مقابل كل البشرية لو أنه إنسان فحسب ، لكن إذ يُدرك أنه « الله المتجسد » ، يحتمل الموت فى الجسد الذى له ، فعندئذ تحسب الخليقة كلها صغيرة إن قورنت بالنسبة له ، ويُحسب موت الجسد الواحد فدية تحمل فيضاً على أجساد الكل . لأن الجسد إنما هو جسد الكلمة المولود من الله الآب .

+ يتقدس معنا مع أنه هو نفسه مقدّس كل خليقة ، كى لا تراه يرفض قياس الطبيعة البشرية ، ذاك الذى ارتضى أن يصير إنساناً من أجل خلاص الكل وحياتهم .

+ + +

١٤ ـــ القديس ديسقورس والأوطاخية

عودة الجدال اللاهوتى حول شخص المسيح

إدانة نسطوريوس فى المجمع المسكونى الثالث فى أفسس عام ٤٣١ م قد ألهبت الجدال بين مساندى اللاهوت الإسكندرى ومساندى اللاهوت الأنطاكى . فقد أدان يوحنا الأنطاكى ومعاونوه القديس كيرلس ومعاونيه . وفى سنة ٤٣٣ م أعلن « نص اعادة الاتحاد » أو « رمز الاتحاد » ، لكن هذا البيان لم يقدم ارضاءً شاملًا ، إذ لم يقتنع به أى طرف من الطرفين الرئيسيين بطريقة كاملة[١] . الآن ، تغيرت الظروف وعاد الجدال بشكل أكثر حدة أدى إلى انشقاق مرّ فى الكنيسة فى مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ .

فى سنة ٤٣٥ م ، فى الرها انتخب أسقف جديد هو هيبا تحول إلى تلميذ غيور لثيؤدور المؤبسستى (الميصة) القائد الأنطاكى ، فبدأ الجدال العقيدى من جديد يرتكز على كتابات ثيؤدور . وفى سنة ٤٤٣ م احتل دومنيوس الأسقفية عوض يوحنا الأنطاكى ، وكان ضعيف الشخصية متذبذباً ، يأخذ قراراته الحساسة خلال إرشاد ثيؤدورت أسقف قورش[٢] . وفى سنة ٤٤٤ م تنيح القديس كيرلس وخلفه رئيس الشمامسة ديسقورس الذى صحبه فى مجمع أفسس[٣] . وقد اعتاد الخلقيدونيون أن يصفوه بسمات شريرة :

يقول شاف : [لقد تخطى (كيرلس) فى كل سماته الشريرة ، بينما تخلف عنه فى الذكاء والقدرة اللاهوتية[٤]] .

يقول Latourette : [رجل شديد الغيرة على كرامة كرسيه ولاهوتياته ، تخطى كيرلس فى تأكيد الطبيعة الإلهية فى المسيح[٥]] .

من الجانب الآخر يكرمه غير الخلقيدونيين بكونه « المبشر الرسولى وشهيد المسيح الحقيقى[٦] » ، الذى رفض « أن يحنى ركبة للبعل فى مجمع الانشقاق[٧] » .

J. Neale يصفه : [رجل رائع الطبع ، محبوب جدا لاتضاعه . هذه الفضائل تزينها غيرته النارية على الإيمان وذهنه الحاضر[٨]] .

فى القسسطنطينية مات بروكلس وخلفه فلفيان (فلابيانوس ، فلافيانوس) (٤٤٦ م) وهو إنسان خجول بلا قدرة على الكلام[٩] . ويبدو أنه كان يؤمن بـ « الطبيعة الواحدة المتجسدة لله الكلمة من طبيعتين[١٠] » ، لكن ثيؤدورت أسقف قورش غيَّر ذهنه .

القديس ديسقورس وثيؤدورت أسقف قورش

أرسل القديس ديسقورس بعد سيامته رسائل لإخوته الأساقفة حسب التقليد الكنسى ، علامة الشركة الرسولية . أرسل ثيؤدورت أسقف قورش ـــ الذى كان يناضل ضد القديس كيرلس لصالح نسطور ـــ رداً على البطريرك الجديد بخطاب مملوء تملقاً ، يمتدحه فيه من أجل اتضاعه ورقته[١١] . لكن ثيؤدورت ـــ بعد ذلك ـــ أعلن عداوته للقديس ديسقورس لأن الأخير أرسل إلى دمنيوس أسقف أنطاكية يلومه فيه برقة وانفتاح على تشجيعه للثنائية النسطورية من جهة شخص المسيح ، واستهانته بمجمع أفسس ، وإعلانه أن نسطور ليس هرطوقياً . لقد أجاب دمنيوس برسالة رقيقة جاء فيها أنه سرّ بخطابه بسبب محبته وانفتاحه[١٢] .

القديس ديسقورس وأوطيخا

كان أوطيخا (حوالى سنة ٣٧٨ـــ٤٥٤ م) أرشمندريت (ورئيس) دير بالقسطنطينية ، حيث كان حوالى ٣٠٠ راهب يعيشون تحت قيادته . وهو ناسك شيخ ، وُهب البلاغة لكنه لم يكن لاهوتياً حقيقياً . لعب دوراً خطيراً فى الانشقاق الكنسى فى القرن الخامس .

قدم لنا الأنبا غريغوريوس بولس بهنام أسقف بغداد صورة لشخصية أوطيخا ودوره فى أحداث الكنيسة فى القرن الخامس[١٣] . كان لأوطيخا شهرة فائقة فى كرسى القسطنطينية ، وفى الأوساط الديرية ، وفى البلاط الإمبراطورى ، وعلى مستوى الشعب . هذا يرجع إلى ذكائه وبلاغته مع حياته النسكية وعلاقته الوطيدة بالقصر الإمبراطورى ، خاصة خلال قريبه خريسافيوس كبير الحجاب .

كصديق للقديس كيرلس تقبل منه صورة من قرارات مجمع أفسس سنة ٤٣١ م ، وكان يعززها على الدوام[١٤] . لقد قبل صيغة اللاهوت الاسكندرى من جهة السيد المسيح : « طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد » دون التمتع بأساس لاهوتى سليم . فى الواقع لم يكن يمثل اللاهوت الاسكندرى أو الأنطاكى ، إنما غيرته الشديدة ضد النسطورية التى كانت قد انتشرت فى تلك المنطقة ودفاعه عن صيغة الإسكندرية قادته إلى هرطقة أخرى ، إذ زاغ بقوله إن ناسوت المسيح ليس مساوياً لنا . نادى بوجود طبيعتين قبل الاتحاد ، ولكن طبيعة واحدة فقط بعده ، لأن الطبيعة الإلهية قد ابتلعت الناسوتية ، وفُقدت الأخيرة تماماً .

يقول الأسقف بهنام[١٥] إن أوطيخا كان صديقا ليوسابيوس أسقف دوريليوم فى فريجيا ، الذى كان يعتنق بقوة الثنائية النسطورية لشخص يسوع المسيح . خلال تطرفه الفكرى لم يستطع أن يكسب أوطيخا ليرده عن أفكاره الهرطوقية ، فقد كان الأثنان متكبرين ، لهما شهرتهما على نطاق واسع ، لذا أدت المناقشات بينهما الى زيادة تطرفهما ، وتحولت صداقتهما الحميمة الى كراهية عنيفة .

لاهوتيات أوطيخا

ليس بالصعب على أى دارس أن يكتشف شخص أوطيخا ولاهوتياته من مجرد قراءة إجاباته أثناء مناقشته فى مجمعى أفسس سنة ٤٤٨ ، ٤٤٩ م . لم يكن بالشخص اللاهوتى ، ولا مدركاً لنظام اللاهوت الاسكندرى ، إنما تارة يستخدم عبارات أرثوذكسية تضاد أفكاره الرئيسية . ربما لانه كان متزعزعاً فى معرفته اللاهوتية ، أو عن خداع أو ربما لحذره لئلا يفقد شهرته أو مركزه أو كهنوته .

بعد المجمع المحلى بالقسطنطينية عام ٤٤٨ م أرسل « اعتراف إيمانه » للإمبراطور ، إن كان بحق هذا الاعتراف يمثل رأيه فلا يكون حاملًا للهرطقة الأوطاخية ، إذ يقول :

[نعلن أن يسوع المسيح ربنا مولود من الله الآب بلا بداية ...، الذى من أجلنا ومن أجل خلاصنا وُلد من العذراء مريم ...، أخذ نفساً وجسداً ، إله كامل

وإنسان كامل ، واحد مع (مساوٍ) الآب فى جوهره من جهة اللاهوت ... وواحد معنا من جهة الناسوت . نعترف بهذا أنه « من from » طبيعتين بعد الاتحاد ... نؤكد أنه مسيح واحد ، ابن واحد ، رب واحد ، أقنوم واحد ، شخص واحد . لذلك لا نرفض تأكيد أنه طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد الذى صار إنساناً ، إذ هو واحد من اثنين ، كائن واحد بعينه ربنا يسوع المسيح[١٦]].

إدانة أوطيخا

حدث صراع بين أوطيخا والقائد الأنطاكى ثيؤدوريت أسقف قورش ، الذى لأجل محبته وولائه لنسطور قدم لصديقه معانى يقصدها هو وليس نسطور[١٧] . من ناحية أخرى بسبب كراهيته المرة للقديس كيرلس وكتاباته ، خاصة « الاثنى عشر حرماناً » اتهم القديس كيرلس بالأبوللنارية ، ونشر هجوما مطولًا ضد القديس كيرلس وأوطيخا [دون ذكر اسمه] دعاه « إرانستس[١٨] » أو « الشحاذ » ، ينقسم هذا الهجوم إلى ثلاثة أقسام[١٩] :

١ ــ فى القسم الأول أراد إثبات أن الطبيعة الإلهية لا تتغير . ولإثبات هذا دحض اصطلاح القديس كيرلس « ثيؤتوكوس » وأيضا « تبادل الألقاب والخواص[٢٠] Communicato idiomatum » .

٢ ــ القسم الثانى يظهر أن الطبيعتين توجدان فى المسيح بغير اختلاط ، رافضاً اتحاد الطبعتين .

٣ ــ القسم الثالث خصص لإظهار أن الله الكلمة بلا انفعالات . لقد هاجم الحرمان الرابع للقديس كيرلس الذى فيه يقول بأنه يستحيل التفريق بين شخصين وأقنومين ، كما جاء فى عبارات العهد الجديد .

القديس كيرلس نفسه أكد الثلاث نقاط : عدم تغير اللاهوت ، عدم اختلاط الطبيعتين ، عدم انفعال اللوغوس ، لكن الكتاب هاجم اللاهوت الكيرلسى ، خاصة دعوة القديسة مريم « ثيؤتوكوس » ، والمناداة بطبيعة المسيح الواحدة ، وتبادل الألقاب والخواص .

نصح فلافيان بطريرك القسطنطينية يوسابيوس أسقف دوريليوم أن يقابل الأب الشيخ على انفراد ويحاوره ، على أساس أن معتقدات أوطيخا ليست بذى أثر خارج الدير وبموته تموت أفكاره[٢١] . إذ كان يوسابيوس محارباً خبيراً[٢٢] ، وكما يقول Jalland كان لديه أغلب السمات الخاصة بالمتطرفين الدينيين والمضطهدين[٢٣] ، كما يصفه Duschene بأنه « رجل محب للخصام وغضوب بعناد[٢٤] » ، أصر على إدانته أمام مجمع .

عُقد مجمع القسطنطينية من ٨ الى ٢٢ نوفمبر سنة ٤٤٨ لإدانة أوطيخا ، حيث قدم يوسابيوس عريضَة إتهام ضده يتهمه فيه أنه يفترى على الكُتّاب الأرثوذكس متمسكاً بآراء هرطوقيه ، طالباً من فلفيان أن يستدعى أوطيخا ليدافع عن نفسه[٢٥] . رفض أوطيخا الظهور أمام المجمع حتى الجلسة السابعة ، مقدماً أعذاراً كثيرة مثل شيخوخته ومرضه وأن التقليد النسكى يمنعه عن مغادرة الدير .

مناقشات الجلسات الست غير معروف منها سوى بعض عبارات حيث نسب بعض الأساقفة الحاضرين للقديس كيرلس أنه قال بالطبيعتين بعد الاتحاد[٢٦] .

أمام المجمع أعلن أوطيخا أنه قبل تعليم نيقية وأفسس وأنه يؤكد أن [بعد أن صار المسيح إنساناً ، أى بعد أن ولد يسوع المسيح ربنا ، يُعبد الله الكلمة بكونه طبيعة واحدة ، أى الله الذى صار متجسداً[٢٧]] .

لقد أنكر[٢٨] انه قال بأن جسد يسوع نزل من السماء ، بل ضحك عند سماعه هذا الاتهام ضده .

لقد كرر أن المسيح أخذ جسده من العذراء مريم[٢٩] ، وأضاف أنه قد تم تجسد كامل ، لكنه رفض القول بأن جسده واحد معنا[٣٠] (أى مساوٍ لنا) .

أصر يوسابيوس أن يجيب على سؤالين : ١ — هل كان المسيح واحداً معنا (مساوٍ لنا) (حسب الجسد) ؟ ٢ — هل يحمل فيه طبيعتين بعد الاتحاد ؟

من جهة السؤال الأول ، أجاب : [إلى اليوم لم أتحدث عن جسد ربنا أنه واحد مع جسدنا (مساوٍ لجسدنا) ، لكننى أعترف أن العذراء واحدة معنا فى

جوهرنا ، وأن الله تجسد منها[٣١]]. وإذ علق باسيليوس أسقف سلوكية قائلًا مادامت الأم واحدة معنا ، إذن فهو نفسه إذ يُدعى ابن الإنسان يلزم أن يكون واحداً معنا ، أجاب : [كما تقول أوافقك فى كل شيء[٣٣]].

لقد كان متردداً فى هذا الأمر ، كما هو واضح من إجابته على فلافيان : [أنا خائف من القول بهذا ، لأننى أعرفه أنه إلهى ، ولا أجسر على البحث فى طبيعته ، أما أن قداستكم تسمحون بهذا فإننى أقول معك[٣٤]].

يقدم Kelly تبريرا لتردد أوطيخا ، قائلًا : [تردده فى القول « واحد معنا » يرجع إلى تشككه المبالغ فيه أنه يمكن تحريف هذا لمساندة الفهم النسطورى للناسوت كإنسان فرد اتخذه اللاهوت[٣٥]].

بخصوص السؤال الثانى أجاب : [إننى اقرأ الطوباوى كيرلس والآباء القديسين والقديس أثناسيوس، فقد تحدثواعن :« من طبيعتين » إذ يشيرون إلى ما قبل الاتحاد ، اما بعد الاتحاد والتجسد ، فهم لا يؤكدون الطبيعتين بل طبيعة واحدة[٣٦]].

قال باسيليوس أسقف سلوكية بأنه إذ لم يقل بالطبيعتين فهو ينادى بالاختلاط والامتزاج[٣٧] .

أصدر فلافيان القرار بأن أوطيخا يتبع فالنتينوس وأبولليناريوس ، وأن المجمع يحرمه ويعزله عن إدارة ديره وممارسة الكهنوت[٣٨] .

يقول Tixeront : [ربما لم يكن فلافيان آسفاً على التخلص من مدافع يغير غيرة زائدة على بطريرك الإسكندرية (القديس كيرلس)[٣٩]]. ويقول Kelly : [لم يكن من الدوناتست ولا هو أبولليناري ، ليس شيء أكثر وضوحاً من تأكيده حقيقة تأنسه وكمال ناسوته[٤٠]].

إذ يستعرض الأسقف بهنام المناقشات وأعمال هذا المجمع يقدم تعليقين : الأول أن يوسابيوس الأسقف لم يكن يُرد كسب أوطيخا للحق إنما كان يدفعه لقبول الثنائية النسطورية لشخص المسيح دون نقاش ، والثانى أن أوطيخا لم يكن

واضحاً فى إجاباته وذلك ليخفى وجهة نظره الرئيسية[٤١] .

René Dragust وتبعه كل من T. Camelat و J. Kelly بلغ إلى النتيجة بأن أوطيخا لم يكن هرطوقياً أكيداً . يقول Kelly : [يصعب تقرير تعليم أوطيخا الفعلى . فى الامتحان الابتدائى أمام المرسلين من المجمع قال : « بعد ميلاد ربنا يسوع المسيح أعبد طبيعة واحدة ، أى الله الذى تجسد وتأنس » ... غير أن الصورة التقليدية لأوطيخا من الواضح أنها أُخذت خلال اقتناص بعض عباراته والتضييق عليها حسب نتائجهم المنطقية[٤٢] (وليس حسب منطقه هو)]. يلاحظ[٤٣] Jobland أن إدانة أوطيخا بواسطة مجمع القسطنطينية كان تصرفاً متسرعاً .

التجاء أوطيخا إلى الإمبراطور والأساقفة

إدانة أوطيخا سببت متاعب كثيرة فى القسطنطينية . مساعدوه ـــ خاصة فى الأوساط الديرية ـــ اتهموا فلافيان ومساعديه بالنسطورية . فلافيانوس حرم القادة فى الأديرة بينما لجأ أوطيخا إلى روما والإسكندرية وأورشليم وتسالونيكى[٤٤] ، وأيضا خلال صديقه خريسوفيوس كبير الحجاب قدم شكوى إلى الإمبراطور ، يقول فيها بأن الذين حاكموه أرادوا الزامه بالثنائية النسطورية وأن سجلات المجمع قد زوّرت ...

كتب لاون أسقف روما إلى أوطيخا يمتدحه على غيرته فى الدفاع ضد الثنائية النسطورية ، وفى نفس الوقت كتب إلى فلافيانوس يطلب منه الترفق بأوطيخا[٤٥] . لكنه غير رأيه ربما عندما سمع أن الإمبراطور كتب إلى القديس ديسقورس ـــ بابا الاسكندرية ـــ يدعوه لعقد مجمع لمناقشة الأمر . لاون الذى لم تكن لديه معرفة صادقة لطبيعة الصراع بين لاهوت الإسكندرية ولاهوت أنطاكية أرسل طومسه (رسالة) إلى القسطنطينية فى ١٣ يونيو ٤٤٩ م ، لا من أجل مصالحة الطرفين وإنما بغية تشويه اللاهوتيين الإسكندريين . جاء تعليق Tixeront على هذا الطومس : [هذه الرسالة دائما ينظر إليها كمستند عقيدى ذات قيمة استثنائية . ومع هذا فهى حتماً أقل من جهة الإلهام اللاهوتى لعمل كيرلس ،

وعلى سبيل الحصر تدعى تأملًا وبالكاد تجد للاهوت موضعاً فيها . القديس لاون لم يناقش ولا قدم براهين وإنما حكم وبتّ فى المصاعب[٤٦]].

كان لاون مهتما « بالبابوية » أكثر من عقيدة الكنيسة كما سنرى خلال الأحداث فى القرن الخامس . هدفه الرئيسى هو ممارسة السلطة على الكنيسة كلها فى العالم . يقول J.W. Wand : [كان لاون أحد عظماء كل رجال الكنيسة السياسيين ، وقد دُعى أبا البابوية[٤٧]].

هذا الاتجاه واضح ، إذ كتب للإمبراطور يقول له إنه لا حاجة لعقد مجمع وإنه قد عينّ يوليوس أسقف Puteoli والكاهن ريناتيوس والشماس هيلارى كمندوبين عنه يقومون بتقديم ما يحتاجه الإمبراطور[٤٨] ، معلنا أن طومسه فيه كل الكفاية للإرشاد فى الأمر .

يليق بنا ملاحظة أنه فى مجمع المراسلات بين أسقف روما وغيره من الأساقفة أو بينه وبين الإمبراطور لا نجد أثراً لكلمة « بابا » . هذا اللقب مشتق من القبطية وتعنى « أباً » ، استخدمها الشعب فى مصر لأساقفة الإسكندرية دون أن تحمل مفهوم « البابوية » التى استخدمتها روما فيما بعد .

مجمع أفسس الثانى لسنة ٤٤٩ م

إذ اقتنع الإمبراطور ثيؤدوسيوس الثانى بعقد مجمع طلب من ديسقورس أن يمارس سلطته فى المجمع كرئيس[٤٩] ، وطلب من يوبيناليوس أسقف أورشليم وتلاسيوس أسقف قيصرية كبادوكية أن يكونا رئيسين شريكين معه[٥٠] .

قبل مناقشه قرارات المجمع أود أن أشير إلى أن الخلقيدونيين يقولون أنه إن كان مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ م قد سبب شقاقاً فى الكنيسة ، فإنهم يرون أن ما حدث كان رد فعل لمجمع أفسس عام ٤٤٩ م ، الذى دعاه لاون أسقف روما بالمجمع اللصوصى ، ويتهم المؤرخون واللاهوتيون القديس ديسقورس بالعنف ، وأنه قاد المجمع لصالح اللاهوت الاسكندرى . فمثلًا يقول Sellers : [أحد الرجال العنفاء فى تاريخ الكنيسة الأولى هو ديسقورس ، أسقف الاسكندرية ، استطاع أن

يثير عداوة مُرّة من الذين لا يتبعونه فى التفكير ، ونال إعجاب الذين قاوموا النسطورية ... واضح أنه كان اليوم المناسب ليجد ديسقورس فرصته ، إذ صار متسلحاً بعون قوى ، مصمماً أن يحطم كل مقاومى طريقة الإسكندرية فى العقيدة ...[٥١]] .

هل كان القديس ديسقورس عنيفاً ؟

يقدم المطران غريغوريوس بولس بهنام بعد نشره رسالة الإمبراطورين ثيؤدوسيوس الثانى وفالانتينوس ، مترجمة من السريانية الى العربية ، الملاحظات التالية :

١ ـــ لم يعقد المجمع (افسس الثانى) بناء على طلب البابا ديسقورس ، ولم توجد بينه وبين الأباطرة رسائل مسبقة فى هذا الشأن . هذا يعنى أن القديس ديسقورس لم يكن يبغى نفعاً شخصياً خطط له .

٢ ـــ لم يصف الخطاب الامبراطورى القديس ديسقورس بألقاب تكريم أكثر من غيره . هذا يعنى عدم وجود اتفاقات مسبقة بين الإمبراطور والقديس ديسقورس .

٣ ـــ تكشف الرسائل الملوكية عن وجود اضطرابات لاهوتية متزايدة فى ايبارشية القسطنطينية[٥٣] . كان طلب الإمبراطور من القديس ديسقورس هو الإسراع لوضع حد للمتاعب اللاهوتية . هذا ومما يجب مراعاته أن ديسقورس لم يعلن عن صيغة إيمان جديدة[٥٤] ، بل كان يسعى للمحافظة على الصيغة التقليدية للإيمان الكنسى .

٤ ـــ أُخذت القرارات بالتصويت ، ولم نسمع أن أسقفاً من الحاضرين احتج أو انسحب من المجمع[٥٥] (غير فلابيانوس ويوسابيوس عند إصدار الحكم) .

٥ ـــ فى الكلمة الافتتاحية التى ألقاها يوبيناليوس الأورشليمى ، وصف لاون أسقف روما بـ« القديس » ، « محب الله » ، وأعطى لدومنوس أسقف انطاكية لقب « محب الله » ... هذه الألقاب تكشف عن روح المجمع .

٦ ــ عندما سأل لاون أسقف روما إمبراطور الغرب فالنتينوس وأمه وأخته بولشاريا للتوسط لدى ثيؤدوسيوس الثانى ليعقد مجمعاً آخر ، أرسل الأخير رسالة يمتدح فيها مجمع أفسس بأن خوف الله كان يحكمه ، وأن أعضاءه تمسكوا بالإيمان الحق وقوانين الآباء ، وأنه قد فحص الأمر بنفسه وهو راضٍ[٥٦] .

٧ ــ فى الرسالة الملوكية فى افتتاح المجمع أعلن الإمبراطور منعه ثيؤدورت أسقف قورش من الحضور بسبب الآلام التى يعانيها المؤمنون ــ حتى الذين فى القرى ــ من النساطرة[٥٧] . فى الواقع لم يكن ديسقورس عنيفاً بل النساطرة كما شهد الإمبراطور نفسه بذلك .

وإننى أود أن أضيف ملاحظات أخرى :

٨ ــ فى الواقع ، لم ينطق القديس ديسقورس حتى اللحظة الأخيرة من انعقاد المجمع بكلمة ضد روما ، بينما لاون فى رسائله يشير إلى بابانا بأنه « السفاح المصرى » و « معلم أخطاء الشيطان » والباذل بقوة جهده لبث التجاديف المرة وسط إخوته[٥٨] » . وسنرى كيف أن أناطوليوس أسقف القسطنطينية وغيره قد رفضوا نسْب الهرطقة للبابا الإسكندرى .

٩ ــ يعتمد الخلقيدونيون عادة على أعمال مجمع خلقيدونية فى اتهام القديس ديسقورس بالعنف . وسنناقش هذه الاتهامات فيما بعد ، لكننى أشير هنا إلى أنه من الطبيعى أن ينسب النساطرة العنف للبابا الإسكندرى ليخفوا سلوكهم العنيف فى مجمع القسطنطينية كما شهد الإمبراطور ثيؤدوسيوس الثانى وأيضا سلوكهم القاسى مع أوطيخا وأعوانه ، وقد كتب أوطيخا فى التماسه للأساقفة أنه [أكد أثناء محاكمته رغبته فى اتباعه ما قد صمموا عليه ، ولكن فلابيانوس رفض الالتماس ، كما اعترض على العنف الذى استخدم ضده فى المجمع وما بعد المجمع بواسطة العامة[٥٩]] . ونحن نعلم أن فلابيانوس قد حرم كثيرا من قادة الرهبان لأنهم سندوا أوطيخا ضد الثنائية النسطورية .

١٠ ــ اعتاد بعض الدارسين أن ينسبوا العنف إلى لاهوتيى الإسكندرية وآبائها ، حتى بالنسبة للقديسين أثناسيوس وكيرلس ، لذلك أريد توضيح السلوك الإسكندرى :

ا ــ يلزمنا أن نميز بين التمسك بالإيمان الأرثوذكسى دون انحراف ، وبين استخدام العنف . آباؤنا غالباً ما احتملوا الآلام من أجل الإيمان ولم يضطهدوا أحداً .

ب ــ إنها عطية الله لكنيسة الإسكندرية أنها لم تتمتع قط بسلطة زمنية مثل روما والقسطنطينية .

٣ ــ عندما أدانت المجامع المسكونية هراطقة ونفتهم، حتى إن كان رئيس المجمع إسكندرياً ، فإن القرار لا يصدر عن الرئيس الذى يقود المجمع وإنما يلزم الرجوع إلى الامبراطور الذى لم يكن مصرياً قط وإنما كان رومانياً أو بيزنطياً .

على سبيل المثال حينما عُرضت قضية هيبا أسقف الرها ، لم يكن ديسقورس عنيفاً بل صرخ الأساقفة الحاضرون : « ليحرق هيبا وسط أنطاكية » ، « الشياطين أكثر اتضاعاً من هيبا ، إذ يعرفون أن المسيح هو ابن الله » ، و « ليحرق نسطور وهيبا معاً ... إلى النار بالشيطان وابنه معاً ! ».

تشهد أعمال المجمع أن ديسقورس لم يكن عنيفاً لكنه كان حازماً فى التخلص من الاتجاهات النسطورية .

قرارات المجمع

١ ــ إعادة اعتبار أوطيخا

لم يكن خطأ ديسقورس أن المجمع أعاد اعتبار أوطيخا ، وذلك للأسباب الآتية :

ا ــ كتب لاون أسقف روما إلى بولشاريا قائلًا بأن أوطيخا انزلق فى الهرطقة عن جهل منه ، إن تاب فليعامل حسنا[٦٠] . نفس الفكرة أوردها لاون فى خطابه إلى يوليوس أسقف كايوس Cios (٤٤٨ــ٤٥٨ م) وأيضاً إلى فلابيانوس[٦١] .

ب ــ أعلن أوطيخا عبارات أوثوذكسية مثل قوله : [فإنه هو نفسه ، كلمة الله ، نزل من السماء بلا جسد ، صار جسداً من ذات جسد العذراء دون أن

يتغير أو يتحول ، بطريقة هو نفسه يعلمها ويريدها . وهو الإله الكامل قبل كل الدهور هو بعينه صار إنساناً كاملًا لأجلنا ولأجل خلاصنا(٦٢)].

يؤكد أوطيخا أنه متمسك بإيمان نيقيه وأفسس وبعبارات كيرلس ، كما حرم مانى وفالنتينوس وأبولليناريوس ونسطور مع القائلين بأن جسد المسيح نزل من السماء(٦٣) ...

يقول Sellers : [إذ جاء إلى نهاية الإجراءات سأل ديسقورس كل أسقف أن يعطى رأيه بخصوص أرثوذكسية أوطيخا، مبتدئاً بيوبينال ودمنوس ومئة وأحد عشر أسقفاً من بينهم باسيليوس وسليكوس مع الأب برسوما فقبلوا اعتراف إيمانه ووافقوا أنه يجب رد اعتباره(٦٤)].

٢ — إدانة فلابيانوس ودمنوس الخ ...

محاضر الجلسات لا تزال موجودة بالنص السريانى(٦٥) ، نلاحظ فيها :

ا — الاتهام الرئيسى ضد هؤلاء هو اتجاهاتهم النسطورية التى انتشرت فى هذه المنطقة . يقول شادويك : [قام المجمع بعزل القيادات النسطورية(٦٦)].

ب — على سبيل المثال نجد بخصوص هيبا أسقف الرها ، من بين المستندات التى قُرئت رسالة موجهة إلى ماريس أسقف اردشير بفارس . كل الأساقفة صوّتوا ضد الرسالة كنسطورية . وفى مجمع خلقيدونية حكم نواب لاون بأن الرسالة أرثوذكسية ، بينما فى عام ٥٥٣ م حرمها الخلقيدونيون أنفسهم مع كتابات ثيؤدور وثيؤدوريت مُثبّتين حكم مجمع أفسس ٤٤٩ ، وليس مجمع خلقيدونية .

جـ — فى قضية دانيال أسقف حران ، ابن اخت هيبا ، وفى قضية سوفرون أسقف مدينة تلا ، ابن عم هيبا ، كان يوبيناليوس الأورشليمى هو الذى يناقش الأمور وليس ديسقورس . اُتهموا بالنسطورية ، وكان سوفرون قد أسلم نفسه لممارسة العرافة والسحر(٦٧) .

د — بخصوص إيريناؤس أسقف صور ، فقد تزوج مرتين ، وقد ساعد نسطور وحثه على الشر بعد عودته من المنفى ، فظهر كذئب مفترس لشعب

صور . حُرم من العمل الكهنوتى[٦٨] ، ومعه اكويلانيوس شريكه فى الهرطقة والذى أقامه أسقفاً على بيبلوس (جبيل)[٦٩] . الأول سبقت محاكمته وإدانته أما الثانى فقد عصى رئيس الأساقفة دمنوس ، إذ ترك شعبه وهرب إلى إيريناؤس .

فى ادانتهما لم يكن القديس ديسقورس عنيفاً مثل بقية الأساقفة .

هـ ــــ بخصوص ثيؤدورت أسقف قورش ، فهو معروف بأنه قد تمرن على التجديفات النسطورية منذ صبوته[٧٠] ويحمل كراهية مُرّة للقديس كيرلس وكتاباته ، كما سبق أن رأينا .

و ــــ بخصوص دمنوس رئيس أساقفة أنطاكية فواضح أن القديس ديسقورس بذل كل الجهد ليكسبه ولكن ليس على حساب الإيمان الأرثوذكسى . عندما سمع أنه يدعو ثيؤدورت ليبشر فى كاتدرائيته وانه يمدحه ويصفق له بيديه ، وقد أقام له منزلًا بجوار الكاتدرائية ، أرسل له خطاباً مملوءاً حباً وانفتاحاً . وقد أجاب دمنوس مقدما الشكر له على محبته ، لكن دمنوس لم يوقف دعوته لثيؤدورت ، فأرسل ديوسقورس خطاباً آخر إليه فأجاب دمنوس بجحده « حرمانات » كيرلس .

وخلال قضية دمنوس نادرا ما تحدث ديسقورس تاركاً إدارة المناقشة لغيره ، لاسيما ليوبيناليوس وتلاسيوس شريكيه فى الرئاسة .

ز ــــ بالنسبة لفلابيانوس الذى كان قبلًا قد قبل الصيغتين الإيمانيتين : « طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد » و « من طبيعتين[٧١] » ، فإنه تحت تأثير يوسابيوس أسقف دوريليم قَبِل الصيغة : « فى طبيعتين » ، وبعد إدانة أوطيخا فى المجمع المحلى بالقسطنطينية سنة ٤٤٨ م سبب متاعب كثيرة لحساب النساطرة . بعد ذلك لم يسترح الامبراطور ثيؤدسيوس الثانى للاتجاهات التى تبناها فلابيانوس[٧٢] . وعندما دين فى مجمع أفسس (٤٤٩ م) ترك المجمع مع يوسابيوس عوض دفاعه عن نفسه أو إعلان توبته .

٣ ــــ حذف طومس لاون

اعتبر الأسقف الرومانى أن هذا الحذف بمثابة استخفاف بالسلطة البطرسية ، لذا وصف المجمع « باللصوصى » .

وجدير بالملاحظة أن هذا الطومس لم يكتب كمستند للمجمع ، بل كان فى الأصل رسالة موجهة للإمبراطور ، أرسلت منه صورة إلى المجمع سلمت بأيدى النواب . يقول المتروبوليت ميثودويوس باكسيوم : [فى الحقيقة إن تسليم الرسالة للمجمع كان كافياً . لقد كان ممثلو روما حاضرين وكانوا قادرين على تقديم وجهة نظره . إلى يومنا هذا يمكن تسليم رسائل دورية لمجامع دون وجود التزام بقراءتها(٧٣)].

يقول الأب صموئيل : [... كان هذا المستند قد انتشر بشكل واسع فى الشرق منذ منتصف يونيو ٤٤٩ م ، وكانت محتوياته معروفةً للمندوبين فى المجمع لسنة ٤٤٩ م حتى قبل أن يجتمعوا . لقد عرفوا فى الحقيقة أنه يدافع عن عقيدة وجود « الطبيعتين بعد الاتحاد » . فى متن الصراع بين الجانبين الإسكندرى والأنطاكى ، كثير منهم وقفوا يساعدون الجانب الاسكندرى ضد « الطبيعتين » ... لذلك فإن القول بأن ديسقورس منع قراءته فى المجمع فى غطرسة أو عنف أمر غير صادق ، إذ لا توجد أية شهادة على ذلك . بل إن لدينا شهادة أقوى ، من الجانب الآخر ، للحدس بأن المجمع لسنة ٤٤٩ م لم يقرأ الطومس كنوع من الاحترام لكرسى روما(٧٤) (حتى لا تحدث معارضة ضده)].

ربما من أجل اتجاهه النسطورى لم يقرأه الأساقفة تحاشيا لأى صراع مع روما ، خاصة وأن نسطورس أعلن موافقته على الطومس . يقول شادويك : [إذ قرأ نسطور الطومس وهو وحيد فى المنفى شعر أن الحق قد ثبت أخيراً ، وأنه يستطيع أن يموت فى سلام(٧٥)].

لاون أسقف روما ومجمع خلقيدونية

عاد مندوبو روما إلى أسقفهم يعلنون فشلهم فى حماية فلابيانوس وجماعته . كتب لاون إلى ثيؤدوسيوس الثانى ضد القديس ديسقورس كما كتب إلى كنيسة القسطنطينية ، وأخيراً سأل فالنتينيان الثالث خلال زوجته أفدوكسيا وأمه غالا بلاسيديا أن يكتب إلى أخيه ثيؤدوسيوس بخصوص ديسقورس ومجمع أفسس

لسنة ٤٤٩ م ، غير أن ثيؤدوسيوس رفض الطلب ممتدحاً القديس ديسقورس ومجمع أفسس .

ومع ذلك فقد حقق لاون بغيته إذ جاءت الأحداث تخدمه :

١ ـــ تقبّل لاون التماسات من معارضى مجمع أفسس (٤٤٩ م) مثل فلابيانوس الذى أرسل خطابات مع هيلارى الشماس الرومانى(٧٦) ، وآخر بعثه يوسابيوس الذى جاء بعد قليل إلى روما ليقدم التماسه شخصياً ، وثالث أرسله ثيؤدوريت(٧٧) . وُجد نوع من التحالف مع روما ضد الاسكندرية . إلى ذلك الوقت كانت الأمور اللاهوتية تشغل أساقفة الشرق بصورة جوهرية ، لدرجة أن المجامع المسكونية كان يدعو إليها أباطرة الشرق دون تجاهل لأباطرة الغرب ، وهكذا وجد لاون فرصته الذهبية ليتدخل فى نزاعات لاهوتية خاصة ضد الإسكندرية .

إذ كانت روما لا تتبع الإمبراطور ثيؤدوسيوس الثانى (امبراطور الشرق) مباشرة من الناحية السياسية ، لذلك وجد لاون حريته فى التحرك ملقباً مجمع أفسس « المجمع اللصوصى » (المجمع الذى يمتدحه ثيؤدوسيوس) .

٢ ـــ موت فلابيانوس ، الذى يحتمل أن يكون قد حدث بعد إدانته بمدة ليست طويلة ، وجد فيه ولأن فرصة للتعاطف معه (بعد موته)، خاصة فى القسطنطينية . فقد فسرت هذه الوفاة فيما بعد من مقاومى مجمع ٤٤٩ م بأنها تمت بسبب أتعاب جسدية لحقت به فى المجمع(٧٨) .

يليق بنا أن ندرك أن هذا الاتهام ضد المجمع باطل لأسباب كثيرة :

ا ـــ كيف مات فى أغسطس ٤٤٩ م أو بعد ذلك بقليل(٧٩) بينما بعث لاون برسالة إليه فى ١٣ اكتوبر سنة ٤٤٩ م ؟ يؤكد كل من شادويك وجريليميه بأنه قد مات فى فبراير ٤٥٠ م .

ب ـــ لم تكن هناك حاجة للعنف معه إذ أدين ، فليس مطلوبا من المدان أن يوقع على القرار (حتى يُستخدم معه العنف)(٨٠) . لكنه فى الواقع ترك المجمع هو ويوسابيوس وأُرسِل قرار الإدانة إلى الإمبراطور . على العكس نجد فلابيانوس

ورفقاءه استخدموا العنف مع الرهبان الذين كانوا يسندون أوطيخا فى المجمع السابق (بالقسطنطينية). كذلك فى مجمع خلقيدونية عومل البابا ديسقورس معاملة سيئة وقد أرسل أسنانه وشعر لحيته إلى الاسكندرية علامة احتماله وجهاده من أجل الإيمان الأرثوذكسى .

جـ ـــ فى مجمع خلقيدونية (٤٥١ م) كان أحد الاتهامات الموجهة ضد ديسقورس أنه دان فلابيانوس ظلما ، لكننا لا نجد فى أعمال المجمع اتهاماً ضده بأن فلابيانوس مات على أثر معاملته القاسية فى المجمع .

٣ ـــ فى ٢٨ يوليو سنة ٤٥٠ م مات ثيؤدوسيوس واحتلت بولشاريا أخته ورجلها مرقيان الملك وأعلنا أنهما امبراطوران فى ٢٨ اغسطس ٤٥٠ م .

يصف الأرشمندريت جوتيه بولشاريا وأخواتها « الملكات العذارى »[٨١] فيقول ان بولشاريا كانت مشغوفة بأن تحتفظ عائلتها بالمملكة الرومانية ، ولذلك أقنعت أخواتها أن ينذرن البتولية ويعشن فى جناح خاص فى القصر الإمبراطورى ، وكان هدفها من هذا أن تضمن أنهن لا يتزوجن أشخاصاً قد يتسلمن الملك . فطلبت من أخيها ثيؤدوسيوس الثانى الذى لم ينجب ابناً أن يتزوج ثانية ، وإذ أرسل إلى اسقيط مصر وسأل الشيوخ فى هذا الأمر ، أجابه اسيذورس ، احد الشيوخ ، بالنفى . ضغطت بولشاريا على أخيها فأرسل ثانية ، وإذ كان اسيذورس قد تنيح ذهب الشيوخ إلى مقبرته وسألوه فى الأمر فسمعوا صوتاً يقول : « وإن تزوّج عشر نساء فلن ينجب ابناً . استشهد رسول الإمبراطور مارتينوس وابنه زيوس فى البرية قبل عودتهم للإمبراطور ، ولا زالت مقبرتهما قائمة فى دير القديسة العذراء (السريان)[٨٢] . على أى الأحوال ، اذ مات ثيؤدوسيوس كسرت بولشاريا النذر وتزوجت مرقيان ، وأخذت حِلًا من لاون أسقف روما[٨٣] .

عُرفت بولشاريا بأنها امرأة ذات قدرة خاصة وإرادة صلبة ، فدبرت أمور المملكة وتدخلت فى شئون الكنيسة بهدف رفع كرسى القسطنطينية . تخلصت من رئيس الحجاب خريسافوس بإصدار حكم بإعدامه، ونفع أوطيخا الى Doliche فى شمال سوريا[٨٤] . الآن صارت تساند روما ضد الإسكندرية ، فجمعت هى

ورجلها توقيعات على طومس لاون ليكون مستنداً رئيسياً فى مجمع خلقيدونية ضد اللاهوتيين الإسكندرانيين . وفى نفس الوقت قررت ألا تسمح لروما بالسلطة العليا للكنيسة ، لذا رفضت طلب لاون أن يعقد المجمع فى إيطاليا بل أصرت على عقده فى الشرق . وإذ رأى لاون أن الأمور ليست فى يده واستحالة عقد المجمع فى ايطاليا عبّر عن رغبته فى عدم انعقاد المجمع(٨٥) ، لكن مرقيان وبولشاريا أصرا على عقده .

٤ ــ يقرر شادويك أن أناطوليوس ــ خلف فلابيانوس ــ إذ أراد تأكيد مركز القسطنطينية الثانى وجد أن الفرصة ذهبية لحث روما على قبول ذلك .

القديس ديسقورس ومجمع خلقيدونية

بالرغم من الاعتقاد بأن مجمع خلقيدونية عُقد لإدانة أوطيخا ، فقد كان فى الواقع موجهاً ضد البابا ديسقورس الإسكندرى ، وليس ضد الراهب الشيخ ، إذ كان أوطيخا غير حاضر فى المجمع وكان قد نفى فى شمال سوريا قبل عقد المجمع(٨٦) .

فى الواقع أدين ديسقورس لا لهرطقة عقيدية وإنما لظروف سياسية لعبت الدور الرئيسى فى المجمع .

يقول الاستاذ اليونانى الأب رومانيدس : [لقد حُسب ديسقورس أرثوذكسياً تماماً فى إيمانه فى نظر بعض الآباء القادة فى مجمع خلقيدون مثل أولئك الذين مثّلوا أناتوليوس بطريرك القسطنطينية(٨٧)].

ويقول الأب ميثوديوس مطران أكسيوم : [المعلومات التى لدينا لا تصور ديسقورس كهرطوقى ، فمن المعلومات التى بين أيدينا واضح أنه كان إنسانا صالحاً ، بل والأسقف لاون نفسه حاول أن يكسبه إلى جانبه ... هكذا فى خطاب بعث به الأمبراطور ثيؤدوسيوس إلى ديسقورس دعاه فيه إنسانا تشع منه نعمة الله ، وديعاً ، أرثوذكسى الايمان .

فى أثناء المجمع أعلن ديسقورس إيمانه مرات عديدة ، ولم يدن لأنه هرطوقى وإنما

لأنه رفض رئيس الأساقفة لاون فى الشركة ، ولأنه امتنع عن حضور المجمع رغم دعوته ثلاث مرات .

الأدلة كافية لكى نتطلع إلى أسباب أخرى لإدانة ديسقورس . فإن روما كانت فى ضجر بسبب الحيوية غير الطبيعية لكنيسة الاسكندرية وبطريركها النشيط(٨٨)].

يقول R.V. Sellers فى كتابه : « مجمع خلقيدونية » : [فى خلقيدون كان أناطوليوس أسقف القسطنطينية مستعداً أن يعترف بأن الأسقف الإسكندرى قد ملأ العالم بالعاصفة والزوابع ، وفى نفس الوقت لم يعزل المتهم لخطأ فى العقيدة وإنما لأنه تجاسر وحرم أسقف روما ، ولأنه إذ دعى ثلاث مرات للمجمع تغيب عمداً عن اجتماعاته(٩٠)].

أيضا(٩١) J. Labon يعرِّف ديسقورس وقادة الحركة ضد الخلقيدونية مثل (البابا) ثيموثاوس الإسكندرى (٤٥٧ــ٤٧٧ م) ، وفيلكسينوس المومباغى (تنيح عام ٥٢٣ م تقريباً) وسويرس الانطاكى (٥١٢ــ٥٢٨ م) كأرثوذكس فى مركزهم اللاهوتى وليسوا معلمى هرطقة .

لاون أسقف روما وأوطيخا

الآن ، إذ وجد لاون أن أباطرة الشرق قد صمموا على عقد المجمع فى الشرق بعث برسالة يعلن فيها أنه يود إرسال مندوبين عنه للمجمع . ولأول مرة وصف لاون أوطيخا بأنه مخادع وشرير مثل نسطور(٩٢) . قبل هذا كتب إلى الإمبراطور يخبره أنه يجب ألا نشك فى أوطيخا حتى إن كان قد أخطأ ... ولا أن نناقش إيمان الأساقفة إنما نقبل توبتهم(٩٣) ، لكن هذا التغيير المفاجىء لا يعنى إلا أن مؤامرة كانت تحاك ضد القديس ديسقورس .

الجلسة الأولى

الاتهامات الموجهة ضد القديس ديسقورس

عقد المجلس فى ٨ اكتوبر ٤٥١ م فى خلقيدونية عوض نيقية ، وفى الجلسة الافتتاحية كان مركيان وبولشاريا حاضرين . كانت لروما والقسطنطينية الأولوية

لأنهما عاصمتا الامبراطوريتين ، أما القديس ديسقورس فجلس عن يمين الامبراطورين بسبب مركز الإسكندرية اللاهوتى .

إذ بدأ القضاة يعلنون نظام أعمال المجمع ، انبرى فسقسبينوس (باسخاسينوس) — وهو مندوب أسقف روما — يقول : [لدينا قرارات من كلّى الطوبى ، الرجل الرسولى ، أسقف مدينة روما ، **رأس كل الكنائس** ، بأن ديسقورس ليس له موضع فى المجمع . فان عارضها يلزم طرده خارجاً . نحن ملتزمون بطاعة هذا الأمر . لذلك فليأمر سموكم بأن يخرج وإلا رحلنا نحن(٩٤)] . عندما سأل القضاة ، ماذا فعل ديسقورس مخالفاً للقوانين أجاب مندوب رومانى آخر : « لقد وضع نفسه فى مركز قاضٍ ، وأدار مجمعاً دون استئذان الكرسى الرسولى ، الأمر الذى لم يحدث قط ولا يصح أن يحدث(٩٥)» .

الآن أود مناقشة الاتهامات التى وجهت ضد بابانا :

١ — رئاسة مجمع أفسس

ا — واضح أن هذا فى حقيقته ليس اتهاماً ضد ديسقورس بل محاولة لتخويل أسقف روما حقاً على الكنيسة الجامعة . القضاة المدنيون أنفسهم كانوا غير مقتنعين ، وبعد تبادل الكلمات وبغير إرادتهم طلبوا من القديس ديسقورس أن يترك كرسيه فى المجمع ويجلس فى الوسط فى موضع المتهمين .

ب — لم يَدْعُ ديسقورس للمجمع إنما الذين دَعوا إليه هم الأباطرة ، ورسائلهم لا تزال محفوظة إلى يومنا هذا .

جـ — من العجيب أن لاون الذى اعترض على مجمع أفسس بكونه غير قانونى لأنه لم يسمح بعقده ، هو نفسه أرسل مندوبين عنه للمجمع وغضبوا لأن طومس لاون لم يُقرأ .

د — لم يكن ديسقورس وحده رئيسا على المجمع بل كان معه رئيسان آخران هما يوبيناليوس وتلاسيوس حضرا بناء على أمر امبراطورى .

٢ ــ قصة الأوراق البيضاء

إذ ترك البطريرك الإسكندرى موضعه اتهمه يوسابيوس النسطورى المعزول أنه قد عامله معاملة سيئة مع البطريرك فلابيانوس ، وأنه قد حاول تثبيت الأوطاخية كأنها أرثوذكسية ، وذلك فى مجمع أفسس . طلب القديس ديسقورس أن يبدأ الحوار بالموضوع الإيمانى غير أن القضاة طلبوا بحث الاتهامات الشخصية ضده .

ولما قُدمت محاضر جلسات مجمع أفسس للقراءة ، سأل القديس ديسقورس لماذا يُحاكم بمفرده مع أن يوبيناليوس وتلاسيوس كانا رئيسين معه والقرارات أُخذت بموافقة الكل(٩٦) . هنا لكى يُحمَّل بالمسئولية بمفردِه قال اسطفانوس أسقف أفسس إنهم أُلزموا بتوقيع أوراق بيضاء باستخدام العنف .

كانت القصة مدبرة لأسباب كثيرة :

ا ــ لم يشر يوسابيوس أسقف دوريليوم ــ الذى كان حاضرا مجمع أفسس ــ إلى قصة الأوراق البيضاء عندما كتب التماسه للإمبراطور(٩٧) .

ب ــ لو أن القصة حقيقية لماذا انتظروا أكثر من عامين لنسمعها للمرة الأولى فى أكتوبر ٤٥١ م من أناس وقعوا على طومس لاون وأرادوا مساندته ؟!

جـ ــ عندما سألهم القديس ديسقورس بخصوص تسجيل أعمال المجمع الأفسسى ، اعترفوا أن كل أسقف كان يصحبه كاتب وأنه توجد أكثر من نسخة سجلت بواسطة كتّاب يوبيناليوس وتلاسيوس واكيسيوس أسقف كورنثوس الخ ... فكيف وقعوا أوراقاً بيضاء ؟!

د ــ عندما سئل الأساقفة عن حرمهم لفلابيانوس لم يقولوا إنهم وقعوا أوراقاً بيضاء بل اعتذروا مرتين : « كلنا أخطأنا ، نسأل العفو(٩٨) » .

هـ ــ أثناء أعمال مجمع خلقيدونية تعلن مناقشات الأساقفة أن القصة مدبرة ، فعلى سبيل المثال قال اسطفانوس فى البداية إن ديسقورس ــ وحده ــ هو المسئول عن توقيع الأوراق البيضاء . بعد ذلك هو نفسه قال إنه بينما كان السكرتاريون يسجلون أعمال المجمع ، جاء سكرتيرو ديسقورس وأخذوا منهم

الأوراق المكتوبة ليجعلوا منها نسخة مطابقة لما لديهم[٩٩] . . . . ، وقال ثيؤدور أسقف كلوديبوليس : « ديسقورس ويوبيناليوس قدما لنا أوراقا بيضاء[١٠٠] » .

و ‌ ـ لام القديس ديسقورس علانية الأساقفة الذين قالوا إنهم وقعوا أوراقاً بيضاء مثل اسطفانوس ، أو القائلين بأنهم وقعوا لمراضاة بقية الأساقفة مثل باسيليوس أسقف سلوقيا (سلوكية) ، إذ أنه من واجب الأسقف أن يكون شجاعاً لا سيما حينما يوقع بخصوص الإيمان الثمين[١٠١] .

٣ ــ تبرئة أوطيخا

عندما ناقشوا كلمات أوطيخا ، قال متهمه إن أوطيخا كان كذاباً . وقد أوضح القديس ديسقورس إنه لا يهتم بالأشخاص بل بالإيمان الرسولى ، إن تَمَسَّكَ أوطيخا بما يخالف إيمان الكنيسة فليُدَن[١٠٢] .

فى الواقع أوطيخا مسئول عن نفسه أمام الله إن كان كذاباً ، لأن الله وحده هو الذى يعرف القلوب . عندما أعلن إيمانا أرثوذكسياً حتى وإن لم يكن هذا هو إيمانه الحق فإن المجمع لا يقدر أن يدينه .

على العكس نحن ندين ما قد حدث فى مجمع خلقيدونية أن ثيؤدوريت أسقف قورش الذى سبق أن أُدين من اجل نسطوريته سُمح له بحضور المجلس منذ الجلسة الأولى[١٠٣] قبل النظر فى قضيته .

٤ ــ إدانة فلابيانوس ويوسابيوس

سأل القضاة كيف تبرأ أوطيخا الذى لم يقبل صيغة إعادة الاتحاد لسنة ٤٣٣ م ، بينما حُرم كل من فلابيانوس ويوسابيوس اللذين قبلاها .

هنا أثيرت المشكلة الرئيسية ، فإن القديس ديسقورس أوضح كيف أن القديس كيرلس ــ تسنده (كتابات) القديس أثناسيوس ــ يرفض صيغة « طبيعتين بعد الاتحاد » ، بكونها صيغة غير شرعية ، وأنه استخدم « طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد » . عند سماعهم « طبيعة واحدة » صرخ بعض الأساقفة ، قائلين : [أوطيخا يقول هذا . ديسقورس يقول هذا] . هنا أوضح

القديس ديسقورس وجهة النظر الإسكندرانية : [لسنا نعنى اختلاطاً ، ولا امتزاجاً ولا تغييراً . من يقل بالاختلاط أو التغيير أو الامتزاج فليكن أناثيما[١٠٤]].

دافع أوسطاسيوس اسقف بيروت عن نفسه مؤكداً أنه يجب القول بطبيعة واحدة حسب شهادة الكلى الطوبى أثناسيوس[١٠٥] . قال أيضا : [إن كنت قد قلت خطأ ، أنظروا عمل كيرلس ... إن كان أحد يؤكد « طبيعة واحدة » وهو يعنى أن يستبعد جسد المسيح الذى هو واحد معنا ، فليكن أناثيما . هكذا أيضاً من يتحدث عن « طبيعتين » ليقسم إبن الله فليكن أناثيما[١٠٦]] . لقد أشار أن فلابيانوس نفسه استخدم تعبير « طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد » فى اعتراف الإيمان الذى أرسله إلى ثيؤدوسيوس[١٠٧] .

يوبيناليوس الذى كان حتى هذه اللحظة يقف بثبات بجانب ديسقورس بدأ يتذبذب وقال أيضا مثل أوسطاسيوس .

أعلن ديسقورس أن فلابيانوس بعدل قد عُزل لأنه تحدث عن « طبيعتين بعد الاتحاد » ، وأن لديه عبارات من كتابات الآباء القديسين : أثناسيوس وغريغوريوس وكيرلس تقدس فقط « طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد[١٠٨] » .

حاول ديسقورس أن يوضح مركزه أنه لا يقبل القول بـ « طبيعتين بعد الاتحاد[١٠٩] » إنما لا اعتراض له على القول « من طبيعتين بعد الاتحاد[١١٠] » . بهذا لم يسند القول بـ « الطبيعتين بعد الاتحاد » ، ولا الطبيعة الواحدة بحسب المفهوم الأوطاخى .

أعلن الحكم بواسطة القضاة المدنيين :

ديسقورس الإسكندرى ، ويوبيناليوس الأورشليمى ، وتلاسيوس القيصرى بكبادوكيا ، ويوسابيوس أسقف أنقره ، واوسطاسيوس أسقف بيروت ، وباسيليوس أسقف سيلوكيه فى أشور ، هؤلاء الرجال مسئولون عن قرارات المجمع الثانى لأفسس ويجب عزلهم[١١١] .

عند ختام الجلسة وعلى خلاف ما دبّر بابا (لاون) كعمل رئيسى للمجمع[١١٢] ــ قرر القضاة بأن مناقشة الإيمان المستقيم تتم فى الجلسة

التالية[١١٣] ، وأن كل مندوب يمكن أن يقدم بياناً إيمانياً مكتوباً مع مراعاة أن الامبراطور يؤمن بما يتفق مع قوانين نيقية والقسطنطينية ، وكتابات الآباء القديسين : غريغوريوس وباسيليوس وهيلارى وأمبروسيوس ورسالتى كيرلس اللتين قبلهما مجمع أفسس الأول[١١٤] ، وأيضا طومس لاون .

يلاحظ الأب صموئيل الهندى هنا أنهم أشاروا إلى الرسالتين القانونيتين للقديس كيرلس أى الثانية والثالثة الموجهتين لنسطور ، غير أنه فى الواقع لم تُقرأ الأخيرة فى مجمع خلقيدونية بحرماناتها الاثنى عشر . المستندات التى قرئت هى الرسالة الثانية ونص إعادة الاتحاد لتدعيم التفسير الأنطاكى لاتحاد عام ٤٣٣ م ضد الجانب الإسكندرى[١١٥] .

الجلسة الثانية (فى ١٠ اكتوبر[١١٦])

لم تأتِ هذه الجلسة بنتائج أفضل (بالنسبة للخلقيدونيين) بالرغم من غياب رؤوس المجمع الأفسسى ، لأن قرار العزل كان قد أعلن فى اليوم قبل السابق .

١ ــ عارض المجمع بقوة ضد الاقتراح بأنه يلزم تقديم « تفسير آخر بجانب التفسير الذى علّم به الآباء وأن يدّون كتابة[١١٧] » . لقد صرخوا : [القانون لا يسمح بتفسير آخر . لينتشر تعليم الآباء[١١٨]] .

٢ ــ مع أن كثيرين من الأساقفة قد وقعوا على طومس لاون قبل انعقاد المجلس[١١٩] ، لكنه عندما قرىء فى الجلسة وجد أناس يعترضون على ثلاث عبارات فى الطومس خاصة أساقفة الليريون وفلسطين . طلب أتاكيوس أسقف نيكوبوليس فترة زمنية لمراجعة الطومس على الرسالة الثالثة للقديس كيرلس لنسطور .

طلب أساقفة الليريون إبداء الرحمة برؤساء مجمع أفسس حتى بالنسبة لديسقورس[١٢٠] ، لكن لم يلتفت أحد إليهم .

عند نهاية الجلسة ، أعلن القضاة المدنيون أن الجلسة القادمة ستكون بعد خمسة أيام حتى إن من كان لديه شك فى الطومس يمكنه مقابلة أناطوليوس

بطريرك القسطنطينية فيوضح له ما لبس عليه[١٢١] . وحقيقة الأمر أن هذه الفترة أعطيت لضمان قبول الطومس من كل الأعضاء .

الجلسة الثالثة (فى ١٣ اكتوبر)

فجأة فترة الأيام الخمسة كمهلة لم تحترم ، وإنما فى ١٣ اكتوبر عقد المجمع تحت رئاسة فسقسبينوس (باسخاسينوس) المندوب الرومانى دون أن يحضر القضاة المدنيون ولا الرجال الستة الذين أُدينوا . يقول الأب صموئيل (الهندى) إن سجلات المجمع لا تحوى عدد الاساقفة الحاضرين الاجتماع ، والذى لا يستحق أن يدعى جلسة ، فمن الواضح أن العدد كان صغيراً لان الاجتماع عقد فى « مارتيريون القديسة أوفيمية[١٢٢] » ، وهى كنيسة صغيرة ، عوض كنيسة أوفيمية[١٢٣] .

وإذ أرادوا اتمام شكليات ليكون الحكم قانونياً دعوا البابا ديسقورس ثلاث مرات ، وعندما قال إنه فى الحبس لا يقدر الخروج بدون تصريح من السلطات[١٢٤] ، أجابوه : هذا ليس من شأننا[١٢٥] .

قيل إنهم بعد ذلك أحضروا له إذناً لكنه وضع شروطاً لحضوره : حضور القضاة المدنيين وأيضا الذين أُدينوا معه .

فى غيابه قدّم أربعة رجال من الإسكندرية (كاهن وشماسان وعلمانى) شكاوى ضده تحمل اتهامات باطلة لا تستحق مجرد النظر فيها . كان الاتهام الرئيسى هو أنه منع شحن القمح إلى ليبيا ... وهو ذات الاتهام الذى أثار قسطنطين ضد القديس أثناسيوس .

الاتهامات الأخرى مثل أن حياته فاسدة ، وأن سخطاً شديداً عليه فى الاسكندرية وأنه أساء معاملته لهم بطرق مختلفة وأنه عارض كيرلس فى اللاهوتيات ... هذه كلها اتهامات واهية ، لأن التاريخ نفسه يشهد كيف كانت غالبية القطر المصرى كله يحبونه بشدة ويكرمونه .

كما أضافوا أنه حرم لاون ؛ يقول الأب صموئيل جاء هذا التصرف مقابل تصرف لاون[١٢٦] .

قال مندوبو روما : [... خلال وكالتنا نحن عنه (عن لاون) والمجمع الحاضر قد عزله من كل كرامة أسقفية ونزعه عن كل عمل كهنوتى[١٢٧]] . أى أن بابا الاسكندرية لم يُعزل بواسطة مجمع الأساقفة بل بواسطة بابا روما . وما كان على المجمع إلا أن يوافق على القرار الذى أصدره رئيس الكنيسة الجامعة . لم يعلق أحد فى المجمع على هذه الإدعاءات الباطلة[١٢٨] .

وهكذا يتضح أن القرار فى الواقع لم يصدر من أجل عقيدة لاهوتية إنما لأجل الدفاع عن سيادة السلطة البابوية الرومانية !

لماذا عُزل البابا ديسقورس ؟

لم يشر الحكم ضد القديس ديسقورس الى أى اتهام سوى رفضه الدعوة لحضور المجمع ثلاث مرات ...

[بالتفكير ملياً فى القوانين المقدسة وفى أنك قد عصيت هذا المجمع المقدس المسكونى ، هذا الى جانب الذنوب الأخرى التى اقترفتها (لم يذكر شيئاً عنها) لم تستجب للدعوة الثالثة لهذا المجمع المقدس العظيم ، الذى أُقيم لأجلك حسب القوانين الإلهية لتجيب على الأسئلة الموجهة ضدك ، اعلم الآن أنك عُزلت فى اليوم الثالث عشر من الشهر الحالى ، أكتوبر ، بواسطة المجمع المقدس المسكونى ، عن أسقفيتك وحرمت من كل رتبة كهنوتية[١٢٩]] .

إذ قدَّم لنا المطران بهنام[١٣٠] تعليقات بعض الأساقفة عن هذا المجمع على هذا التقرير يعلنون فيها أنه مستحق للإدانة لأنه احتقر المجمع ورفض المثول فيه ، يقول بأن ذكر هذا الاتهام وحده فى حيثيات حكم المجمع وأيضا فى تعليقات الأساقفة دليل واضح على أن بقية الاتهامات ضده كانت واهية !

يشير مارسويريوس يعقوب توما[١٣١] الى أن القضاة المدنيين أنفسهم حزنوا لاستبعاد ديسقورس ، قائلين للأساقفة إنهم مسئولون أمام الله عن هذا القرار .

لكن هكذا كانت رغبة الإمبراطورة أيضاً إذ أرادت التخلص من البابا الإسكندرى .

وطبقا لما ورد فى خطاب المجمع للاون الرومانى فقد عزل ديسقورس للأسباب التالية(١٣٢) :

١ ـــ أنه عزل الراعى الطوباوى لقديسى القسطنطينية ، فلابيانوس ، الذى نشر الإيمان الرسولى ، وأيضا الكلى التقوى الأسقف يوسابيوس .
٢ ـــ أنه برّأ أوطيخا بتصويت مقيت .
٣ ـــ حرم لاون .
٤ ـــ رفض قبول طومس لاون .

فى الواقع انتهز المجمع الفرصة لعزل بابانا ليُشبع رغبة لاون أسقف روما كما جاء بوضوح فى محاضر جلسات المجمع ومن الرسائل المتبادلة بين لاون والنساطرة .

تقول ايريس حبيب المصرى(١٣٣) إن الخلقيدونيين نفوا بابانا لأنه حرم لاون أسقف روما من أجل نسطوريته وتضيف أن هذا الحرمان لم يكن الوحيد بالنسبة لأساقفة روما ، إذ قدمت أمثلة لذلك :

١ ـــ القديس هيلارى أسقف بواتييه وهو خاضع للأسقف الرومانى حرم ليباريوس أسقف روما لأجل أريوسيته .
٢ ـــ هونوريوس أسقف روما حرمه مجمع القسطنطينية سنه ٦٨٠ م .
٣ ـــ فى القرن التاسع ، قام فوتيوس القسطنطينى بحرمان نيقولاوس الأول أسقف روما لأنه اعتقد بأن الروح القدس ينبثق من الآب والابن .

على أى الأحوال حاولت روما تشويه شخصية القديس ديسقورس . وكما يقول W. Frend : [نزل ديسقورس كأحد الأدنياء فى التاريخ الكنسى ، لكنه لم يكن هكذا بالنسبة لمعاصريه عند سيامته بل وحتى بالنسبة لمؤرخين متأخرين(١٣٤)] .

الأب صموئيل يقول(١٣٥) إن أناطوليوس أسقف القسطنطينية أشار الى إدانة ديسقورس ثلاث مرات مقدما ثلاثة أسباب مختلفة :

١ ــ فى ١٣ أكتوبر بعد أن جاء فى صف المندوبين الرومانيين قال بأن ديسقورس يجب أن يعاقب لأنه استخف بالمجمع .

٢ ــ فى ٢٢ أكتوبر أعلن أن ديسقورس لم يدن لأى خطأ عقيدى من جانبه وإنما لأنه حرم لاون أسقف روما ولم يطع المجمع .

٣ ــ فى خطابه الى لاون بعد مجمع خلقيدونية قرر أن ديسقورس قد دين لأجل سلام الكنيسة كان السبب فى غاية الأهمية من وجهة نظره . وكان السلام فى الكنيسة فى ذلك الوقت كان محتوما بقبول طومس لاون ، لأن بولشاريا ومارقيان قد سنداه .

القديس ديسقورس فى المنفى :

نفى القديس ديسقورس فى غنغرة ببافلونيا على الشاطىء الجنوبى للبحر الأسود ، لمدة حوالى خمس سنوات ، وقد عومل معاملة سيئة وتنيح على أثر القسوة والعنف التى تعرض لهما .

رافقه فى المنفى أسقفان وبطرس رئيس الشمامسة وسكرتيره ثيؤبسطوس الذى سجل لنا تاريخ حياته ، هؤلاء رافقوا باباهم المحبوب بمحض اختيارهم . أما القديس مقاريوس أسقف ادكو فلم يستطع مرافقتهم إذ طلب منه البابا العودة الى مدينته ليتمتع بإكليل الاستشهاد هناك(١٣٦) .

جمحت سفينة أحد التجار المصريين على شاطىء غنغرة ، وإذ رأى التاجر البابا فى منفاه بكى لكن البابا هدأ نفسه ، قائلا له : [مادمنا نحفظ الإيمان الذى سلمه لنا آباؤنا فنحن فى خير رغم الضيقات والقيود] . وبسبب اللجاجة قَبِل البابا أن يتسلم بعض الذهب من التاجر ويقوم بتوزيعه على المحتاجين .

أخبرنا تلميذه تيؤبسطوس أن القديس ديسقورس كرز بين الوثنيين والنساطرة هناك ، وقد ربح نفوساً كثيرة لحساب ملكوت المسيح بالحب .

زاره فى المنفى القديس بفنوتيوس رئيس أحد الأديرة الباخومية ، وكانا يتأملان الكتب المقدسة ، خاصة العليقة الملتهبة (خر ٣) كرمز لاتحاد اللاهوت بالناسوت . كما كانا يمجدان الله بالتسابيح .

هل كان ديسقورس أو طاخياً ؟

٢ ــ يقول Sellers فى كتابه « مجمع خلقيدونيه[١٣٧] » : [فى خلقيدونيه ، استطاع أناطوليوس أسقف القسطنطينية ــ الذى كان فى نفس الوقت مستعدا أن يعترف بأن الاسكندرى (ديسقورس) « قد ملأ العالم كله بالزوابع والعواصف[١٣٨] » استطاع أن يعلن بأن المتهم عُزل لالخطأ عقيدى وإنما لأنه تجاسر وحرم أسقف روما ، ولأنه دُعى ثلاث مرات ولم يحضر اجتماعات المجمع عمداً[١٣٩] . علاوة على هذا فإن بياناته تُظهر أن ناسوت الرب بالنسبة له حقيقى ــ إذ هو ليس تابعاً لأبولليناريوس ــ وأن الناسوت بقى حقيقياً فى إتحاده مع الكلمة الإلهى . حقاً لقد كان واضحاً فى هذه النقطة إذ قال : « اننى أعلن عن حذف أمور هامة كثيرة ، فإنه لم يقل أحد بأن الجسد المقدس الذى أخذه ربنا من العذراء مريم بالروح القدس بطريقة هو يعلمها ، مختلف عن جسدنا أو غريب عنه ... إذ يقول بولس : « كان ينبغى أن يشبه إخوته فى كل شيء » عب ٢ : ١٦ ، ١٧ . وأن كلمة « فى كل شيء » لاتحتمل إسقاط أى شيء من طبيعتنا ... الجسد الذى وُلد من مريم كان متحدا بنفس المخلص ، وهى نفس عاقلة ذكية ، دون زرع بشر ... إذ شابهنا ، لأجلنا ، ومعنا ، ليس خيالاً ولاخلال مشابهة (رمزية) كما جاء فى بدعة أتباع مانى بل بالحرى جاء بالحقيقة الفعلية من مريم « الثيؤتوكوس[١٤٠] »] .

فى خطاب القديس ديسقورس رهبان هناطون ، دير يبعد ٩ أميال عن الإسكندرية ، يقول ان الله الكلمة واحد مع الآب فى الجوهر ، فى آخر الدهور لأجل خلاصنا صار واحداً مع الانسان فى الجسد ، وقد بقى كما هو من قبل[١٤١]

لقد أكّد وحدة الطبيعتين فى طبيعة « **واحدة** » ، دون اختلاط خصائصهما أو امتزاجهما ، إذ يقول :

[أعرف تمام المعرفة ، كما تربيت فى الإيمان ، أنه مولود بكونه الله ، وهو بعينه ولد من مريم إنساناً ، انظره يمشى على البحر كإنسان ، وخالق القوات السمائية كإله ....[١٤٢]] .

[نعترف بأن المخلص هو واحد بعينه ، ربنا وإلهنا ، وإن كنا نراه قد صار بالتدبير إنساناً . تمسكوا باعتراف آبائنا ، ولاتصغوا إلى كلمات الهراطقة المدمرة للنفوس ، ولاتحاوروا من يقسموا الواحد الى اثنين ، فإن مخلصنا هو واحد كما قلت ، وإن كان من أجل تعطفه علينا صار إنسانا(١٤٣)] .

٢ ـــ واضح أن أعمال مجمع خلقيدونية قد ركزت على الهرطقة الأوطاخية ، لتؤكد أن الناسوت لم يبتلع فى لاهوت المسيح ، وأن خواص كل طبيعة بقيت كما هي . لقد أعلن القديس ديسقورس فى أول جلسة أنه غير ملتزم بتعاليم أوطيخا بل بتعليم الآباء التى تسلمها . المشكلة بالنسبة له هى رفضه اصطلاح « فى طبيعتين » ، لأن يسوع المسيح بعد الاتحاد طبيعة واحدة « من طبيعتين » . لقد أوضح تفصيلاً أنه لايقصد بالطبيعة الواحدة ابتلاع ناسوت المسيح نهائياً .

بينما قدّم المجمع صيغة إيمان جديدة : « فى طبيعتين » ليحفظ الكنيسة من الأوطاخية،تمسّك القديس ديسقورس بصيغة الإيمان التقليدية : « طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد » ليحفظ الكنيسة من النسطورية .

الدفاع عن تعريف خلقيدونيه الإيمانى :

اهتم كثير من الدارسين الغربيين بالدفاع عن مجمع خلقيدونية وعن صيغة إيمانه ، منهم(١٤٤) Sellers و(١٤٥) Grimelier . يرى الأب صموئيل أن دفاعهما قام على ثلاثة افتراضات موضع تساؤل(١٤٦) ، قام بتفنيدها . واننى أشير الى هذه الافتراضات مع افتراضات أخرى :

١ ـــ أن أوطيخا هرطوق أكيد ؛ هذا الافتراض لم يُبرهن عليه للأسباب التالية :

ا ـــ أوطيخا كما رأينا لم يكن لاهوتياً بل راهباً بسيطاً ، [illegible] ولم يكن له ذات الأثر مثل نسطور الذى جذب كثيرا من الأتباع . لم يتجاهل المجمع النسطورية تحت التظاهر بالدفاع عن الإيمان الأرثوذكسى ضد الأوطاخية وإنما أيضا حمل المجمع اتجاهات نسطورية كما سنرى .

ب ــ إن كان المجمع قد عقد لمناقشة الأوطاخية كان يجب إحضار أوطيخا من منفاه لسؤاله .

٢ ــ أن تعريف الإيمان الذى أصدره مجمع خلقيدونيه بواسطة الأعضاء بالإجماع تم تلقائيا لمواجهة احتياج لاهوتى له ، إلا أن محاضر جلسات المجمع تؤكد أنه لم تثر فى المجمع مناقشات لاهوتية . وإذا اخذنا ماحدث فى جلسة يوم ٢٢ أكتوبر بشيء من الجدية ، لأدركنا أن تعريف المجمع جاء من صنع الفريق الذى يناصر الدولة تحت قيادة مندوبى روما ، الذين أرادوا تعريفاً يتفق مع طومس لاون .

٣ ــ الافتراض الثالث أن كثيرا من النصوص الآبائية التى يقدمها غير الخلقيدونيين أُخذت عن كتابات أبو لليناريه[١٤٧] . ويرد بأن هذا الافتراض غير صحيح للأسباب التالية :

ا ــ لم يقل أحد من رجال القرنين الخامس والسادس بأن هذه المقتطفات هرطوقية الأصل .

ب ــ أشار القديس سويرس الانطاكى وغيره إلى تقليد راسخ ، منتقياً مقتطفات من آباء الكنيسة ، مبتدأ من أغناطيوس الانطاكى حتى كيرلس الاسكندرى ، ليظهر أن مجمع خلقيدونية جحد هذا التقليد من أجل اتسام المجمع بالنسطورية .

جـ ــ أضاف هؤلاء الدارسون أن قادة الجانب غير الخلقيدونى لم يكن لهم الفكر الأبو لليناري اللاهوتى .

ء ــ يشهد Sellers المدافع عن صيغة الإيمان الخلقيدونى أن غالبية أعضاء المجمع اعتقد بأن الصيغة اللاهوتية : « الطبيعة المتجسدة » هى صيغة الكنيسة التى سُلمت إليهم بواسطة القديس أثناسيوس ، إذ يقول : [مافعله مجمع خلقيدونيه هو استبعاد كل تفسير خاطيء للصيغ الإيمانية الإسكندرانية ــ لااستبعاد الصيغ ذاتها ــ بشرط فهمها بطريقة صادقة . بعد هذا كله بصعوبة استطاع المجمع إدانة القول « بطبيعة واحدة متجسدة » ، إذ كان معتقداً أنها مسلّمة بواسطة أثناسيوس نفسه[١٤٨]] .

٤ ــ لم يجهل المجمع الخلقيدونى اللاهوت الإسكندرى ، ولاحرم صيغته الإيمانية(١٤٩) . يكرر Sellers تأكيده أن المجمع لم يرفض الصيغ الإيمانية الإسكندرانية بل تفاسيرها الخاطئة(١٥٠) . فيعلق على التعريف الخلقيدونى : [المجمع يحرم الذين يتحدثون بكلمات فارغة على طبائع المسيح أنها اثنتان قبل الاتحاد ، وبعد ذلك طبيعة واحدة بعد الاتحاد] بالقول : [كما قلنا هذا لايعنى أن آباء خلقيدونيه رفضوا استخدام صيغة كيرلس : « بعد الاتحاد طبيعة واحدة للكلمة الالهى المتجسد » ، إنما رفضوا التفسير الخاطىء للصيغة(١٥١)] .

اعتقد أيضا Sellers أن التعريف الخلقيدونى للايمان متناغم مع التعليم الكيرلسى(١٥٢) .

كثير من الدارسين يعلنون أن هذا التعريف الإيمانى هو عمل مصالحة بين اللاهوت الإسكندرى واللاهوت الانطاكى .

هذه الفروض نترك الحديث عنها لكتابنا التالى « اللاهوت الإسكندرى » إن شاء الرب .

لماذا نرفض مجمع خلقيدونيه ؟

لسنا نرفض المجمع لجحده الأوطاخية ، فإننا نحن أيضا نجحدها ، وإنما نرفضه لاتجاهه النسطورى الواضح خلال النقاط التالية :

١ ــ لم يستخدم المجمع الاثنى عشر بندا (الحرمانات) التى لكيرلس ضد نسطور ، بل بالعكس ردّ اعتبار ثيؤدورت أسقف قورش وهيبا أسقف الرها المعروفين كنسطوريين. يقول H. Chadwich : [أما عن النساطرة ثيؤدوريت وهيبا أسقف الرها فقد أعيدا إلى عملها ، بينما دين نسطور نفسه كهرطوقى (١٥٣)] .

لقد سمح لثيؤدوريت النسطورى أن يحضر الجلسة الأولى قبل مناقشته . يقول Sellers : [بدأ السكرتير الإمبراطورى قسطنطين بقراءة الخطاب المرسل من ثيؤدوسيوس الى ديسقورس فى ٣٠ مارس سنه ٤٤٩(١٥٤) ، والذى يضم أمراً بألا يسمح لثيؤدوريت بحضور المجمع إلا بناء على طلب خاص من الأساقفة المجتمعين

هناك . وما أن ختم قسطنطين قراءة الخطاب حتى سمح القضاة المدنيون للأسقف بالدخول فى المجمع على أساس أنه قد أعيد له اعتباره بواسطة لاون ، وأن مارقيان قد أمر بأن يكون له وضعه فى جلسات المجمع(١٥٥) . إذ دخل ثيؤدورت وأخذ مكانه بجانب يوسابيوس كخصم آخر ضد ديسقورس ، حتى حدث ضجر بأصوات فظة تدينه كغير مستحق للأسقفية ، وقد طلب القضاة المدنيون من الطرفين الاذعان لقراءة المستندات فى دورها ، وأن قضية أسقف قورش قد أدرجت لإعادة النظر فيها فى الوقت المناسب(١٥٧)] . عندئذ حيّاه الجانب المضاد بالقول له(١٥٨) : « أيها اليهودى » ، « يامقاوم الله » ، « يامن تهين المسيح » ، « يامن حُرم من القديس كيرلس » .

ثيؤدورت هذا رفض حتى إعادة الاتحاد لسنه ٤٣٣ فى البداية ، لكنه قبله عام ٤٣٥ ، واستمر يتبع يوحنا الأنطاكى ، بالكاد تصالح مع القديس كيرلس .

فى ٢٦ أكتوبر سنه ٤٥١ م ، عندما سأله الأساقفة أن يحرم نسطور ، أجاب أنه يدينه . وإذ كرروا الطلب ولم يحرم نسطور ، صرخوا ؛ « إنه هرطوقى ! إنه نسطورى ! أقصوا هذا النسطورى ! » عندئذ حرم نسطور .

أما بالنسبة لهيبا الذى أعيد له اعتباره فى ٢٧ أكتوبر فيدعوه Tixeront العدو الذى يسب كيرلس(١٥٩) . يكفى أن نشير إلى أن مندوبى روما قد أصروا على أن رسالته الى ماريس أرثوذكسية(١٦٠) ، نفس هذه الرسالة دانها مجمع القسطنطينية بعد ذلك عام ٥٥٣ م .

٢ -- تعريف الإيمان الخلقيدونى تم تحت ضغط القضاة المدنيين الإمبراطوريين ، مع مندوبى روما . يقول Grillemier : [إنه فقط تحت الضغط المستمر من جانب الإمبراطور مرقيان وافق أباء خلقيدونيه على تقديم نص جديد للإيمان ، فإنه حتى الجلسة الرابعة للمجمع فى ١٧ أكتوبر ٤٥١ م ، كان مندوبو الإمبراطور يسمعون المجمع يردد ثانية إنهم لا يريدون تقديم نص جديد للإيمان غير قانون الايمان النيقوى وماجاء بالقسطنطينية(١٦١)] . أيضا يقول Tixeront : [أغلب الآباء كانوا يعارضون وضع نص جديد للإيمان ، وكانوا يريدون الاكتفاء بالموافقة على بعض المستندات التى تعبر عن عقيدتهم(١٦٢)] .

كانت أوامر الإمبراطور نحو المجمع هى إصدار قانون إيمان جديد ، لكى تُضم الكنيسة كلها فى الشرق تحت قيادة القسطنطينية . وقد وجد الأباطرة لأسباب سياسية أن يُحدروا الإسكندرية من الزعامة التى تتمتع بها فى الشرق ويقيموا القسطنطينية بدلا منها(١٣٦) . لذلك استخدموا لاون أداة لتحقيق غايتهم خلال عداوته للإسكندرية إذ كان ينظر اليها كعائق فى تحقيق سلطته البابوية على الكنيسة فى العالم كله .

على أى الأحوال فى ٢٢ أكتوبر سنه ٤٥١ م جاء الأساقفة الشرقيون ومعهم مسودّة لنص إيمانى كى يتبناه المجمع . وكما جاء فى Tixeront [نصها مفقود ، كل مانعرفه بالتأكيد أنه يؤكد أن يسوع المسيح « من of » طبيعتين(١٦٤) . كان النص دقيقاً ولكنه غامض ، وبطريقة معينة غير مرضٍ ، إذ أعلن ديسقورس نفسه قبوله(١٦٥) . أى على الأحوال وافق أغلب الأعضاء على قبوله ماعدا مندوبو روما وبعض أساقفة المشرق (الذين لهم ميول نسطورية)(١٦٦)] .

عندما سأل أناطوليوس : هل النص يرضيكم ؟ قالت الأغلبية : [النص يرضى الكل ، هذا هو إيمان الآباء ، من يفكر بغير هذا فهو هرطوقى . إن فكّر أحد بخلاف ذلك فليكن محروما . اطردوا النساطرة . هذا النص الايمانى يكفى الكل . ومن لايدن نسطور فليخرج خارج المجمع(١٦٧)] .

تحت تهديد مندوبى روما سأل القضاة المدنيون بياناً جديداً ، لكن الأساقفة أصرّوا أن هذا تعريف الإيمان الأرثوذكسى(١٦٨) . يقول Kelly : [يجب ملاحظة أن القضاة المدنيين من قبل الأباطرة إذ أرادوا تحاشى الانشقاق ، مارسوا ضغطا شديداً قبل الموافقة ... فقط وبمهارة فائقة للغاية ودبلوماسية رضخ المجمع لقبول التعديل اللازم(١٦٩)] .

يلاحظ الأب صموئيل أن القضاة المدنيين العلمانيين ـــ الذين بحسب رأى أساقفة جلسة يوم ١٣ أكتوبر أنه لاضرورة لوجودهم عند النظر فى قضية البطريرك ديسقورس(١٧٠) ـ الآن يقومون بتقديم التقرير النهائى لصيغة إيمان الكنيسة . هؤلاء أشاروا الى أن : [ديسقورس قرر بأنه قبل صيغة « من (from) طبيعتين » ولم

يقبل صيغة « فى (in) طبيعتين » ، أما لاون فقد أكد أن الطبيعتين اتحدتا بدون اختلاط ولاتغيير ولا انفصال فى المسيح ، الابن الواحد ، مخلصنا ، فأيهما تتبعون : القديس لاون أم ديسقورس ؟] . وكما جاء فى محاضر الجلسات فإن الأساقفة قبلوا التبعية للاون .... لماذا ؟

ا ـــ بحسب Hefele[١٧١] فإن محاضر الجلسات هنا بها فجوة . واضح أن القضاة أشاروا إلى لاون كمدافع ضد الأوطاخية ، بهذا حوّلوا اتجاه الأساقفة عن الدفاع ضد النسطورية . هذا واضح من إجابة الأساقفة : [كما لاون هكذا نعتقد نحن ؛ المقاومون هم أوطاخيون . لاون أرثوذكسى[١٧٢]] .

ب ـــ لم يقل القضاة إن ديسقورس هرطوق بل إن الصيغة الجديدة : « فى طبيعتين » تحمل ذات المعنى : « من طبيعتين » ... وإن الصيغة الجديدة تؤكد اتحاد الطبيعتين بغير تغيير ولا انقسام ولا اختلاط فى المسيح[١٧٣] .

٣ ـــ السبب الرئيسى لنبذ مجمع خلقيدونيه هو أن المستند الرئيسى له هو « طومس لاون » . فى الواقع أن غير الخلقيدونيين منذ العصور الأولى فى تفنيدهم للمجمع يهاجمون الطومس أكثر من التعريف الإيمانى للمجمع ؛ الخلقيدونيون البيزنطيون لايعقلون على الطومس قدرما يعقلون على تعريف المجمع الإيمانى بشرحه خلال الخطوط الرئيسية للاهوت الكيرلسى مما جعل تفسيرهم للخلقيدونية مقتربا جدا من وضعنا اللاهوتى[١٧٤] .

هذا الطومس يضع صيغة إيمان خاصة بالسيد المسيح جديدة : « فى طبيعتين » عوض الصيغة الكيرلسية : « طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد » . الصيغة الجديدة لاتعطى تأكيدا للاتحاد الأقنومى .

جدير بالملاحظة أن قبول الطومس كمستند للإيمان قد أعلن فى ١٧ أكتوبر بينما كان القديس ديسقورس قد عزل بواسطة الاجتماع فى ١٣ أكتوبر ، وبعد أن وقع أعضاء المجلس عليه كأفراد . ومع هذا فإن كثيرين من الأساقفة الشرقيين وافقوا عليه إرضاءً لأسقف روما تسنده السلطة الإمبراطورية .

فى جلسة ١٠ أكتوبر أشار أساقفة الليريون وفلسطين إلى ثلاث عبارات وردت فى الطومس تبدو لهم أنها تخدم التعليم النسطورى الخاص بانقسام الطبائع وترى فى

المسيح شخصين[١٧٥] . وحتى عندما وفعوا قبلوه ليس كإعتراف إيمان لازم وحقيقى ، إنما مجرد تقرير يقبلونه على ضوء التأكيد الذى قدمه نواب روما[١٧٦] .

يقول Tixeront الذى يدافع عن مجمع خلقيدونيه : [لذلك استمر اللبس فى الفهم ، وقاومت جماعة يعتد بها من الأساقفة حاسبين أن مجمع أفسس قد أدين بواسطة مجمع خلقيدونيه ، وأن لاهوت كيرلس قد ازدراه خطاب لاون . هذا الأمر كان أمراً خطيراً بالنسبة لأناس يقفون بجدية ضد النسطورية ولايريدون — ولو بطريقة منظورة — أن يملى عليهم الغرب شيئاً . وإذ أُعطى لهم الخيار بين البابا والقديس كيرلس — كما ظنوا — فضلوا أن يقفوا بثبات بجوار معلم الإسكندرية العظيم[١٧٧]] .

يقول الأب الأستاذ فلوروفسكى اليونانى : [إن أُخذ طومس لاون بمفرده ، ربما يخلق إيحاءً مضاداً ومبالغاً فيه بخصوص الطبيعتين ، خاصة بإصراره على نسب أعمال معينة للسيد المسيح لطبائع مختلفة دون التأكيد التام على وحدة شخص المسيح ، بالرغم من نية البابا نفسه الصادقة والأرثوذكسية . على أى الأحوال ، فإن المفسرين للطومس بواسطة المؤرخين واللاهوتيين الرومان الكاثوليك فى العصور الحديثة غالباً ماتعلن اتجاهاً نصف أريوسى ، هذا الاتجاه ظهر حديثاً بواسطة بعض الكتاب الرومان الكاثوليك[١٧٨] .

يقرر المطران ميثودوس : [خطاب (القديس) لاون أسقف روما المعروف جداً ، لفلافيان رئيس أساقفة القسطنطينية ينظر إليه اخوتنا غير الخلقيدونيين كعقبة لايمكن التغلب عليها فى مجهوداتنا للاتحاد معهم . يعتقد غير الخلقيدونيين أن « الطبيعتين » (two physeis and ousiai) فى شخص واحد هو اتجاه نسطورى . هذا الاعتقاد دعمته حقيقة مدح نسطور نفسه لطومس لاون ، إذ قال : « عند قراءة هذا الخطاب شكرت الله لأن كنيسة روما تمسكت بالاعتراف بالايمان الأرثوذكسى[١٧٩]] .

اليوم نجد بعض الدارسين يقررون انه حسب طومس لاون « المسيح لم يعد واحداً » بل منقسم على نفسه ...

أرجوا بمشيئة الله أن أعود الى طومس لاون بأكثر تفصيل فى مناقشة : **« اللاهوت الاسكندرى »** .

\+ + +

يطلب من :

مكتبة مارمرقس بالأنبا رويس / العباسية / القاهرة ت { ٤٨٨٢٤٥٤ ٦٨٢٥٣٧٠

مكتبة مارجرجس سبورتنج / الإبراهيمية / الإسكندرية

مكتبة مارمرقس والأنبا بطرس / سيدى بشر / الإسكندرية

الثمن ٢٧٥ قرشاً